سلسلة روايات الحبيب

Nahas Publishing House

أ - ١١٣

A - 113

الرسالة البريئة

www.rewity.com/vb

سنو وايت

باربرا كارتلاند

الفصل الأول

دخلت أورسا من الباب الأمامي، وسرعان ما لمست السكون الشامل الذي يعم المنزل في غياب أبيها.

فقد اعتادت أن تجده في مكتبه ينتظرها، وسارت في الممر دون وعي منها وكأنه ما زال موجوداً.

لقد كان ماتيو هولينغتون أحد اكبر اللغويين المعروفين في هذا القرن.

وكانت مكتبته مليئة بالكتب المؤلفة، بكل لغات العالم تقريباً.

وكان بعض هذه الكتب بالغ القدم كان قد عثر عليها بنفسه في أبنية منعزلة، عتيقة، واسواق شرقية. وحيث انه لم يكن لديه إبن، وكانت ابنته أورسا معه على الدوام، فقد علمها عديداً من اللغات، حتى انها اصبحت خبيرة مثله في معرفة ما إذا كان اي كتاب أو مستند صحيحاً أم زائفاً.

وعند دخولها إلى المكتب، عاد الشعور بالوحشة يكتنفها لغيابه.

كان قد ذهب إلى امستردام في رحلة قصيرة، حيث ان بعض الأكاديميين هناك قد تلقوا وثائق من الهند الشرقية لم يستطيعوا فك رموزها من دون عونه ونصيحته.

وكانت أورسا قد سألته: «هل ستأخذني معك، يا أبي؟»

«ليس الأمر بالذي يستحق المشاهدة، يا ابنتي، وسيتملكك الضجر من الناس الذين سأقيم بينهم، فهم

جميعاً من المسنين المستغرقين في اهتماماتهم الخاصة.»

شعرت أورسا، حينذاك بخيبة أمل، ولكنها كانت تعلم أن أباها كان يفكر في مصلحتها.

وكانت قد قالت له قبل ان يغادر: «أسرع بالعودة، يا أبي لأنني سأشتاق اليك. وعلى كل حال، ان لدي عملاً كثيراً في الحديقة، وكذلك سأهتم بجيادك كأنها جيادي.»

فضحك أبوها وهو يقول: «إني واثق من ذلك. انتبهي إلى نفسك يا ابنتي، وأنا اعدك بالعودة بأسرع ما استطيعه.»

ولأنه كان قد قال إنه لن يغيب اكثر من أسبوع، فإنها لم تفكر في دعوة أحد للإقامة معها في غيابه، وكانت تعلم ان كثيرات من صديقاتها كان سيسرهن تلبية دعوتها، ولكنهن كن من الثرثرة بحيث لن يتركن لها وقتاً تؤدي فيه ما تريد من عمل.

كان منزل هولينغتون من طراز عهد الملكة آن كما كانت والدة أورسا قد اجتهدت في جعله كذلك وتاثيثه بما يناسب ذوقهم.

وكانت تصر دوماً على أن ابنتها وليس الخدم، هي التي عليها غسل الأواني الصينية الثمينة ورفو القماش المطرز المنجدة به الكراسي.

فكانت تقول لأورسا: «إذا أردت أن يأتي العمل جيداً فعليك ان تقومي به بنفسك.»

وبعد وفاة أمها، أدركت ان نصيحتها تلك كانت صحيحة تماماً. كان في جناح أمها في الطابق الأعلى، بعض الأشياء التي تستلزم الرفو.

فقد كانت الستائر هي الأصلية التي كانت علقت عند بناء البيت. ولهذا، فقد كانت من النفاسة بحيث كان من الإجرام السماح لأحد عديم الخبرة بلمسها.

دخلت المكتب ونظرت حولها، ثم اخذت في تنظيم مكتب أبيها. ولمست المحبرة الذهبية، فقد كانت هدية لأبيها من ملك ايطاليا شاكراً له العمل الذي قام به، وكان أبوها قد حدثها عن تلك المناسبة بقوله: «عندما ذهبت إلى هناك، كان المكان غارقاً في الفوضى. ولكنني استطعت ان انظم كل شيء كما يجب، وكل ما أرجوه هو ألاّ يعيدوه إلى الفوضى مرة أخرى.»

ولم تكن أورسا معه في ايطاليا، ولكنها كانت قد التحقت به فيما بعد، حيث أمضيا وقتاً في جنوب ايطاليا قبل ان يعودا إلى الوطن.

وكانت تتمنى الآن لو كانت بصحبة أبيها، فقد كان مجرد وجودها في امستردام هو شيء سعيد رغم كآبة الناس هناك، ولكن لم يكن أمامها سوى أن يتلقى أبوها دعوة ثانية فترافقه إليها.

وعندما فتحت باب المكتب، أدهشها أن تسمع اصواتاً في الردهة.

وتساءلت عمن يمكن أن يكون الزائر. فإذا كان من الاصدقاء، فمعنى هذا بقاؤه لتناول الشاي، وهذا، كما رأت، سيشكل عائقاً امامها عن العمل الذي كان عليها أن تقوم به في جناح أمها، وسارت في الممر حيث التقت داوسن الخادم عندهم منذ ولادتها.

فسألته: «من القادم يا داوسن؟»

أجاب: «انها اللايدي، يا آنسة أورسا.» ولما نظرت إليه مستفهمة، عاد يقول: «انها اللايدي بينيلوب براكلي.»

«لا اصدق ذلك.»

فقد كانت شقيقتها بينيلوب قد تزوجت من السيد براكلي منذ ثلاث سنوات.

كان أبوها قد تعرف إليه في إحدى رحلاته إلى الخارج، وبعد عودته، جاء السيد براكلي لزيارته في منزله هذا، وهكذا تعرف إلى بينيلوب التي كانت، في ذلك الحين، في التاسعة عشرة من عمرها.

وقد ظن في البداية، أن الفارق بين عمريهما سيقف عائقاً بينهما وبين السعادة الزوجية.

ولكن هذا جعل بينيلوب اكثر إصراراً على الزواج منه.

لقد كانت تريد حياة اجتماعية لم تكن لتتوفر في الأرياف.

وهكذا سمح لها والدها بالمكوث في لندن فترة عند بعض الأقرباء حيث سعدت بينيلوب بكل دقيقة منها وقد جعلها هذا تصمم على الزواج من شخص ذي مكانة اجتماعية.

وعندما عادت إلى البيت كان كل حديثها مركزاً على زيارتها للندن، وكذلك على بعض المنازل الهامة الأخرى التي كانت دعيت اليها.

ولكن، لسوء الحظ، لم تشأ قريبتها التي كانت استضافتها هناك، ورافقتها في كل تلك الزيارات، ان تبقيها عندها مدة أطول. وهكذا عادت بينيلوب إلى بيتها في الريف وقد ساد ملامحها العبوس، حيث أخذت تبدي ضيقها وضجرها من كل شيء.

هذا فيما كانت أختها أورسا سعيدة تماماً بالعيش في الريف.

وكانت صديقاتها في المنطقة يحببنهما ويرحبن بدعواتهما لهن في أي وقت، ولكن بينيلوب كانت تتعالى عليهن وهي تقصر حديثها على لندن ومجتمعاتها.

وعندما زار السيد براكلي أباها، اسعدها ذلك.

كان قد تزوج من قبل، ولكن زواجه ذاك لم يكن ناجحاً، كما أنه لم ينجب أولاداً.

وعندما عاد من تلك الزيارة، لم يستطع أن ينسى بينيلوب.

فكان أن أرسل دعوة إلى ماتيو هولينغتون الأب طالباً منه أن يزوره لكي يدلي برأيه في كتاب قديم كان اكتشفه لتوه، ودعا معه بينيلوب أيضاً.

وبعد تلك الزيارة إلى لندن، ابتدأت زيارات السيد براكلي لهم تتوالى، متذرعاً لذلك بمختلف الحجج، وأخيراً، عرض عليها الزواج.

وقبلت هي عرضه.

وأصرت بينيلوب على أن يكون الزواج في لندن. فقالت لها أختها: «ولكن كل أهل القرية يريدون أن يروك عروساً.»

فردت عليها بينيلوب: «لا يهمني ما يريده القرويون. ان اصدقاء آرثر يريدون ان يحضروا عرسه.»

وأدركت أورسا ان لا فائدة من الجدل في هذا الموضوع وخصوصاً عندما تابعت بينيلوب تقول: «انك ستكونين إحدى وصيفات الشرف في العرس، وحيث ان لدى آرثر

www.rewity.com/vb

عدداً من بنات عمه وخاله، وهن كذلك على قدر كبير من الأهمية فسآخذهن وصيفات هن أيضاً.»

وسافرتا إلى لندن قبل العرس ليكون بإمكان بينيلوب أن تشتري جهازها، وكان الكثيرون من البارزين في لندن قد سمعوا بماتيو هولينغتون وتأثروا بشهرته كعالم لغوي موهوب.

وبعد انتهاء العرس، عاد ماتيو هولينغتون وابنته إلى بيتهما في الريف، وهناك قالت أورسا بعد أن استقر بهما المقام: «ما أجمل العودة إلى بيتنا، يا أبي.»

فسألها: «هل تعنين ذلك حقاً، ام انك انت ايضاً يا ابنتي، تواقة إلى الأضواء المتألقة وزوج من النبلاء؟»

اجابت أورسا: «عندما اتزوج يا أبي، أريد ان احب زوجي أولاً كما كنت أنت وأمي.»

قال: «وهذا ما أتمناه لك يا ابنتي. ان الحب الحقيقي أروع شيء في العالم. لأنني أؤمن بالنصيب، فأنا واثق من انك يوماً ما، ستعثرين على الرجل المناسب، وليس مجرد افضل الموجود كما يقولون، مهما كان تألقه.»

فأدركت أورسا بالضبط ما الذي كان يعنيه، واجابت: «ان الحق معك، يا أبي، كما أنني الآن اكثر من سعيدة لكوني معك.»

ورأت الرضا على وجه أبيها لقولها هذا، كما أدركت، في نفس الوقت، انهما قد خسرا بينيلوب.

وقد كانت أرسلت لهما بطاقات بريدية من حيث ذهبت.

وبعد ذلك، كانت تكتب اليهما عندما يحل العيد، مرسلة اليهما هدايا رخيصة لا فائدة منها.

كانت واثقة من انها تنفق مبالغ كثيرة حيث ان زوجها بالغ الثراء.

سأل أورسا وهو يتلقى هدية العيد من ابنته قلماً للكتابة ريشته اصغر مما يستعمل عادة: «ماذا سافعل بهذا؟»

اجابت: «لا بد ان ينفعك في السوق الخيري القادم، يا أبي.»

وضحك الاثنان، أما الهدية التي كانت أورسا تلقتها من اختها، فقد كانت واثقة من انها سبق وتلقتها هذه من احد معارفها، فأرسلتها اليها لأنها لم تجد لها فائدة، وهكذا حفظت الهديتان للسوق الخيري المحلي، أما رسالة الشكر التي تلقياها من بينيلوب على هديتهما، اليها فقد كانت قصيرة. وكان واضحاً انها كتبتها على عجل، وفي الواقع، اصبحت بينيلوب، مع مرور الزمن، خيالاً غائماً لم يعد يبدو ان له صلة بأسرة هولينغتون.

كانت تقرأ عنها في بيانات استقبالات المجتمع. ولكن اصبح من الصعب التفكير فيها كأخت طالما تشاركتا كل شيء أثناء طفولتهما، بما في ذلك الحاضنة والمربية.

ومن ناحية ثانية، فان بينيلوب لم تستطع ان تفهم او تستوعب شيئاً مما حاول أبوها ان يعلمها إياه، بينما شغفت أورسا بكل ما كانت تتلقاه منه من علوم، ولأنه كان محدثاً بارعاً، فقد جعلها تتصور منازل الهند وجبال الهملايا المكللة بالثلوج وكأنها تراها، كما جعلها ترى جمال فارس واهرامات مصر. وهكذا اصبحت أورسا الآن ترافقه في اغلب الأحيان في رحلاته إلى الخارج.

وكانت بينيلوب، هذه الأثناء، قد ذهبت إلى المدرسة

www.rewity.com

الداخلية، وعندما حان الوقت لتنضم أورسا إليها، رفضت هذه الذهاب، قائلة انها تريد البقاء مع أبيها: «كيف يمكن لأية مدرسة ان تعلمني بنفس الطريقة التي تعلمني أنت بها، يا أبي؟ فأنت تدرس اللغات بالطريقة الصحيحة وليس كالتي يقوم بها المعلمون الانكليز بشكل فوضوي، كما تقول انت نفسك.» وهكذا أذعن الأب. ولما كان يرى أنها لا تجيد اللغة الأسبانية كما يجب، فقد اخذها إلى اسبانيا.

وبعد ذلك قاما بزيارات إلى فرنسا واليونان، اما رحلتهما إلى روسيا فقد كانت مميزة جداً. وفي كل مرة كانا يعودان فيها إلى البيت، كان يبدو لأورسا ان ثقافتها قد ازدادت، ليس فقط بالنسبة إلى اللغات، ولكن بالنسبة إلى البلاد وسكانها. قالت له مرة: «لقد كانت رحلتنا تلك درساً في التاريخ وفي الجغرافيا، يا أبي، بقدر ما هي سياحة جميلة.»

ضحك أبوها حينذاك قائلاً: «هذا هو رأيي أنا أيضاً، وهل يمكنني يا ابنتي ان اعثر على رفيقة سفر افضل منك؟

كانت لهجته صادقة تماماً، وعلى كل حال، كانت هي تعرف اكثر من الجميع، إلى أي حد كان يفتقد فيه أمها.

وكانت ترى احياناً، الحزن في عينيه عندما كانا يذهبان إلى مكان سبق وكان ارتاده مع زوجته من قبل، عند ذلك كانت تدرك مبلغ تعاسته من دونها.

والآن وهي تتوجه إلى قاعة الجلوس، كانت تفكر في أن عليها أن تتعرف إلى اختها مجدداً.

عندما دخلت أورسا، استدارت هي اليها، فرأت اختها مقدار التغير الكبير الذي بدا عليها، ذلك انها اصبحت اكثر

جمالاً مما كانت عليه، ولكن شيئاً جديداً طرأ عليها، شيئاً جعلها مختلفة تماماً عن تلك الأخت التي عرفتها واحبتها لسنين كثيرة.

قالت بينيلوب: «ها انت ذي يا أورسا. لقد ابتدأت اظن انني ربما اخطأت البيت.»

فقالت أورسا: «لقد مضى زمن طويل منذ كنت هنا.»

فأبدت بينيلوب فروغ الصبر، وذلك بحركة من يدها وهي تقول: «الآن ارجوك، لا اريد لوماً، انني لم احضر إلى البيت من قبل لأنني كنت دوماً مشغولة بمواعيد لا تحصى ولا استطيع منها فكاكاً.»

قالت أورسا ببراءة: «تبدين جميلة.»

اجابت بينيلوب: «انني مسرورة لرأيك هذا.»

ولكنها دهشت عندما مدت بينيلوب يدها قائلة: «تعالي واجلسي، يا أورسا، فانا أريد التحدث اليك، كما انني بحاجة إلى معونتك.»

فهتفت أورسا: «معونتي!»

فقد كان هذا آخر ما كانت تتوقع سماعه من أختها.

جلست على الأريكة وقد انتبهت إلى ان ثوبها والذي كان قديماً نوعاً ما، كان يبدو رثاً بجانب ثوب أختها.

وعندما رأت أورسا اختها صامتة، سألتها: «هل انت باقية هنا؟ إذا كنت تحبين، سأطلب لك الشاي.»

قالت بينيلوب: «أريد ان اتحدث اليك يا أورسا.»

وألقت نظرة إلى الباب، ثم عادت تقول: «أرجو ان تكوني قد اغلقت الباب.»

أجابت أورسا بدهشة: «انا واثقة من ان داوسن قد اغلقه.»

فقالت بينيلوب: «لا أريد ان يسمع شخص ما سأقوله لك. أين أبي؟»

أجابت أورسا: «لقد ذهب إلى امستردام، وسيغيب حتى نهاية الأسبوع. لا بد انه سيشعر بالأسف الشديد إذ تفوته رؤيتك.»

فهتفت بينيلوب: «إلى امستردام؟ هذا رائع. إذا هو لم يعد قبل اسبوع، فهذا بالضبط ما أريده.»

نظرت أورسا اليها ذاهلة: «ما الذي تتحدثين عنه؟»

فانحنت بينيلوب نحوها تقول: «والآن اسمعي، يا أورسا، ان ما سأقوله بالغ الأهمية وانا أريد منك ان تساعديني.»

قالت أورسا: «ساساعدك إذا كان بإمكاني ذلك، ولكنني لا اعرف كيف.»

لقد استغربت وهي ترى ان بينيلوب، رغم كل اصدقائها المهمين، وزوجها ذي المركز المرموق، وثروتها الكبيرة، يمكن ان تكون بحاجة إلى ما هو اكثر من هذا، وبدا ان بينيلوب تجد صعوبة في النطق بما تريد، ومضت فترة صمت قالت بعدها: «لقد جئت لرؤيتك يا أورسا، لأنني كما سبق وقلت لك، بحاجة إلى معونتك، وهو شيء لا يمكن لأحد سواك القيام به.»

فقالت أورسا: «سأساعدك طبعاً، يا بينيلوب، وان كان من الصعب ان افكر في شيء يمكنني منحه لك، ولا تملكينه أنت.»

نظرت اليها بينيلوب، ثم قالت على غير انتظار: «اننا غير متشابهتين تماماً، ولكن صوتينا متشابهان جداً.»

فقالت أورسا: «هل هما حقاً كذلك؟ لم افكر في ذلك من قبل.»

قالت بينيلوب: «انهما كذلك طبعاً، لا بد انك تذكرين عندما كنت تنادين أمنا، انها كانت تسأل: «هل تلك أورسا أم بينيلوب؟»

فابتسمت أورسا: «اذكر قولها ذلك.»

قالت بينيلوب: «وكذلك اعتاد والدنا ان يخلط بيننا إذا لم يكن يرانا.»

وكانت تتكلم وكأنها ترغم اختها على الموافقة معها، وانتظرت أورسا ما سيكون وهي لا تستطيع ان تفهم ما فائدة هذا الأمر كله.

وأخيراً، قالت بينيلوب: «والآن، ان ما جئت لأجله هو ان آرثر زوجي سيسافر لرؤية ملك طنجه، والذي هو شخص في غاية الأهمية.»

فقالت أورسا: «كم هذا ممتع. اني اتذكر أن أبي قابله مرة.»

فقالت اختها: «ان آرثر لن يأخذني معه، قائلاً بأنني سأشعر بالملل لأنه سيكون مشغولاً مع الرجال الذين سيمضون الوقت في مناقشات طويلة مسهبة.»

تمتمت أورسا قائلة: «هذا صحيح تماماً.»

فقالت بينيلوب بحدة: «لقد اصر على ان اذهب بدلاً من ذلك، للإقامة مع والدته الأرملة اللايدي براكلي.»

سألتها أورسا: «وأين تسكن؟»

أجابت: «ليس بعيداً من هنا، ولكنني لا أريد ان اسكن في منزل، مع سيدة مسنة في الريف.»

www.rewity.com

فسألتها أورسا بحيرة: «لماذا إذن لا تبقين في لندن؟»

اجابت شقيقتها: «يخاف عليّ من بقائي بمفردي في لندن.»

نظرت أورسا إلى اختها: «ولكنه... زوجك، وعليك ان تطيعيه.»

ودهشت إذ رأت اختها تبتسم: «نعم، بشرط ان تساعديني في ما اطلبه منك.»

«اساعدك بماذا؟ لست فاهمة.»

فقالت بينيلوب: «والآن اسمعي. ان والدة آرثر هي مسنة، كما انها في الواقع، عمياء.»

سكتت وهي تنظر إلى أختها لترى ان كانت هذه قد ابتدأت تفهم ما تقول.

فقالت أورسا: «اتراك تقترحين...»

فقاطعتها: «إذا كنت تريدين ان تساعديني، فعليك ان تذهبي وتمكثي مع الأرملة اللايدي براكلي، حيث تتحدثين معها وتقرإين لها، وتقومين بكل ما يقوم به شخص ما بالنسبة للأعمى. وهذا إلى ان يعود آرثر.»

فحملقت أورسا في اختها وكأنها لا تصدق ما تقول: «ولكن... كيف يمكنني هذا، يا بينيلوب؟ انها ستدرك انني لست انت.»

فسألتها بينيلوب: «وما الذي يجعلها تدرك ذلك؟ انها لم ترني سوى مرة أو مرتين، فهي تعيش دوماً في الريف بينما اعيش أنا في المدينة على الدوام، ثم ان صوتينا كما سبق وقلت، متشابهان جداً، فإذا تصرفت نحو المرأة بشكل طيب، فستكون شاكرة، كما هي عادتها بالنسبة لمن يتعب لأجلها.

فقالت أورسا: «ولكن، عندما يعود زوجك، لا بد...»

قاطعتها بينيلوب: «قبل ان يعود آرثر، اكون انا قد عدت لقد وعدني بان يعلمني بالضبط بموعد عودته. وهكذا جهزت عربة خاصة لكي تنتظر وذلك لكي ترسلي لي معه رسالة زوجي حال وصولها والتي تحتوي على موعد عودته.»

«اتعنين ان عليّ ان... افتح الرسالة؟»

فقالت بينيلوب بضجر: «لا تكوني حمقاء يا أورسا، فما دمت تتظاهرين بانك أنا، فستتصرفين وكانك انا بالطبع، انك ستكونين بالنسبة إلى الخدم، اللايدي براكلي، وكيف بامكانهم ان يعلموا بانك لست انا؟»

«ولكنني واثقة من انني... ساقترف اخطاء... وعند ذلك، ستغضبين مني...»

فقالت بينيلوب: «اذا انت فعلت ذلك، فستحطمين زواجي، وانا لا اعتقد انك تريدين ان يحدث هذا لي.»

شعرت أورسا بصدمة، ولكنها لم تقل شيئاً، بينما تابعت اختها قائلة: «والآن، كل ما عليك ان تقومي به هو ان تذهبي إلى منزل براكلي مكاني، وتتذكري دوماً بانك اللايدي براكلي.»

فقالت أورسا محتجة: «وكيف يمكن ان اكون كذلك، يا بينيلوب؟ انظري إليّ، ثم انظري إلى نفسك.»

أجابت بينيلوب: «انني لست حمقاء، فانت ستبدين مثلي بالضبط، لقد احضرت معي خادمتي وكذلك بعض ملابسي أيضاً، رغم انني سأكون بحاجة اليها.»

رددت أورسا كلامها كالببغاء: «خادمتك؟ اتعنين انها تعلم بخطتك هذه؟»

«يا عزيزتي أورسا، كفاك تصرفاً وكأنك قروية، طبعاً في لندن كل انسان يجب ان يكون لديه شخص موضع ثقة كما هي ماري بالنسبة إليّ.»

ولم تجد أورسا سوى النظر إلى شقيقتها صامتة عاجزة عن أي جواب.

فقد كان ما تعرضه أختها عليها شيئاً لا يقبله عقل، ولكنها كانت تعلم جيداً ان بينيلوب تحصل دوماً على ما تريد. ولهذا عليها أن تمتثل لما تطلبه منها، وذلك بأي شكل كان.

قالت بينيلوب وكأنها شعرت بأنها ربحت المعركة: «ان ماري تنتظر في العربة. وسأذهب أنا الآن لأخبرها، وبعد ذلك نبدأ رحلتنا إلى منزل براكلي.»

وأرادت أورسا أن تقول إن هذا ليس بإمكانها... ولكنها أدركت، حين نهضت بينيلوب، ان أي احتجاج تقوم به سيقابل بأذن صماء. وهكذا وافقت على انتحال شخصية بينيلوب مهما كانت هذه الفكرة مخيفة.

الفصل الثاني

صعدت بها بينيلوب إلى حيث وجدت، وقد تملكتها الدهشة، الخادمة الفرنسية في انتظارها. وقد أخرجت بعض الملابس من الحقيبة ووضعتها على الكرسي.

ورأتها أورسا تمثل الخادمة الفرنسية في مظهرها.

قالت بينلوب: «والآن، ستجعلك ماري على أن يبدو شكلك مثلي، وسيدهشك مبلغ الاختلاف الذي سيبدو به مظهرك، عنه الآن.»

وكان الإزدراء يبدو في صوتها ما شعرت معه أورسا بالضيق. رغم أنها كانت تعلم أن أباها ما كان ليوافق على ذلك، إلا أنها لم تجد فائدة من الاعتراض.

كانت بينيلوب، أثناء ذلك، تخبرها ما عليها أن تعرفه عن حياتها في لندن. فتقول: «إن لدينا منزلاً كبيراً في ساحة غروزفينور. وبما أن آرثر قد تخلى عن منزل براكلي لأمه، فإن لدينا منزلاً ريفياً قرب وندسور.»

وسكتت لحظة ثم أردفت: «وهذا يسهل على آرثر مقابلة الملكة في وندسور هناك.»

أدركت أورسا أنها تحاول التأثير عليها بهذا، فسألتها: «ألا يشتاق إلى المنزل الذي نشأ فيه؟»

أجابت بينيلوب: «كلا، إنه بعيد عن لندن، وما دامت أمه سعيدة هناك، فقد اعتقد أن من الخطأ أن ينقلها إلى منزلها الذي ورثته عن أبيه والذي هو صغير المساحة.»

www.rewity.com/vb

لم تقل أورسا شيئاً، قالت بينيلوب: «في الحقيقة، ليس في نيتي أن أبقى في الريف. يكفي أنني أمضيت صباي في تلك الحياة الكئيبة قبل الزواج.»

فقالت أورسا محتجة: «يا بينيلوب. لقد كنا سعداء جداً. إنك تعرفين هذا. وعندما كانت أمنا حية، كانت تقيم أجمل حفلات الأولاد.»

أجابت: «ربما كنت تفرحين بتلك الحفلات ولكنك أصغر مني. إذ سرعان ما أصبحت هذه الحفلات تجلب الضجر إلى نفسي.»

ونظرت إلى أختها، ثم قالت: «لقد اختلف الأمر تماماً عندما ذهبت إلى لندن.»

أنهت ماري عملها بوضع بعض الكحل في عينيها.

قالت بينيلوب: «والآن، الثوب. علينا أن نسرع إذا كنا نريد الوصول إلى منزل براكلي في وقت الشاي.»

سألها أورسا: «هل أنت واثقة من أنك غير قادمة معنا؟»

ردت عليها بينيلوب: «كلا بالطبع. لا تكوني حمقاء.»

قالت أورسا عندما رأت الثوب: «يا بينيلوب. ما أجمله. هل أنت واثقة من أنك في غنى عن هذا الثوب؟»

أجابت بينيلوب: «إذا شئت الحقيقة، فاللون الأزرق لا أراه ملائماً لي. وهذا الثوب كلفني الكثير من المال كبقية ثيابي التي أحضرتها إليك.»

فقالت أورسا: «سأكون حريصة عليها تماماً.»

أجابت بينيلوب: «أنا لم أعد أريدها، ولهذا كنا نرسلها إلى دار المساعدات حيث أرسل عادة أشيائي التي استغنى عنها وأؤكد لك أن المسؤولين شاكرين لي دوماً عطائي هذا.»

فتمتمت أورسا: «إنني واثقة من أنهن كذلك.» ولم تستطع إلا أن تفكر أن بينيلوب لا يمكن أن تمنح أحداً شيئاً تريده لنفسها.

ووضعت ماري على رأس أورسا قبعة بالغة الجمال تتلاءم وثوبها.

قالت بينيلوب: «لقد أعطيتك أيضاً ثلاث قبعات أخرى، وستخبرك ماري عن المناسبات التي تريدينها فيها، كما أنها تعلم تماماً ما يجب أن ترتديه عند تناول العشاء.»

ضحكت وهي تتابع قائلة: «أظنك ستتناولين عشاءك مع حماتي وأنا آسفة لأجلك. ولكن عليك أن تحدثي نفسك بأنك تقدمين إلي مساعدة كبرى، وإنني شاكرة لك جداً هذا.»

ثم ناولت اورسا حقيبة يد وقفازين.

فقالت بينيلوب: «ها أنت ذي أصبحت جاهزة أخيراً. يجب علينا أن نرحل حالاً. فالطريق سيستغرق ساعة ونصف على الأقل.»

بعد قليل قالت بينيلوب: «لقد نسيت. كيف جعلتني أنسى يا ماري؟»

فسألتها أورسا: «وماذا نسيت؟»

أجابت بينيلوب: «خاتم الزواج. المفروض أنك امرأة متزوجة.»

واستدارت نحو الخادمة: «ذلك إهمال شنيع حقاً منك، يا ماري.»

فتمتمت ماري بالفرنسية ما فهمت أورسا أنه يعني: «غلطة من هي؟»

ثم فتحت كيس المجوهرات حيث أخذت بينيلوب تبحث

فيه وهي تقول: «كما أن عليك أن تبدي بمظهر المرأة الغنية. إنني طبعاً، لا أستطيع إعارتك أي شيء ثمين، هذا خاتم الزفاف ومعه خاتم ماسي يناسبه.»

فتمتمت أورسا: «أرجو ألا أضيع منها شيئاً.»

أجابت بينيلوب بشكل عفوي: «إنها ليست ثمينة تماماً. والخاتم الماسي أهدتني اياه، في الواقع، إحدى قريبات آرثر والتي هي، رغم ثرائها، بخيلة جداً، وإلا لاشترت لي شيئاً أثمن من هذا.»

وضعت أورسا الخاتم في اصبع يدها اليسرى بينما تابعت بينيلوب تقول: «وأحضرت كذلك نجمة ماسية كانت أهدتها إلي والدة آرثر ويمكنك أن تخبريها بأنك تتحلين بها، وهذا ما سيسرها. ومن الخطأ أن تضيعيها وإلا غضب آرثر. ولكنه قد منحني كثيراً من المجوهرات الرائعة كنت قد أصريت عليها، ما جعلني لا أتحلى بهذه النجمة أبداً، ولا بعقد اللؤلؤ الصغير هذا الذي بإمكانك أن تلبسيه أثناء العشاء.»

فقالت أورسا: «سأكون حريصة جداً، ولكن لدي بعض مجوهرات أمي يمكنني أن أتحلى بها إذا أردت أنت ذلك.»

أجابت بينيلوب: «إنه لا يعدو إضاعة للوقت ما دامت حماتي لا تستطيع الرؤية. وأنا واثقة، على كل حال، من أنها مخبأة الآن في الخزنة وسيستغرق إخراجها وقتاً.»

ونظرت في ساعتها. فالتقطت أورسا حقيبتها. وعندما هبطن السلالم، أسرع الخادم يحمل الحقيبة. وعندما وصلن إلى الردهة قالت أورسا: «يجب علي أن أخبر الخدم بسفري. وإلا فسيتساءلون عما حدث لي.»

فقالت بينيلوب: «سأخبر داوسن. وأظن من الخطأ أن تراك زوجته أو أي من أولئك الثرثارين في المطبخ.»

فقالت أورسا بسرعة: «طبعاً... لم أفكر في ذلك.»

وكانت قد نسيت أنها قد تبدلت بحيث أصبحت تشبه أختها.

وطلبت منها أختها بقولها: «اصعدي إلى العربة بسرعة، وسأتحدث أنا إلى داوسن. فهو كذلك قد كبر في السن وضعف بصره ما يجعلني أشك في أنه سيلاحظ أي تغير ملحوظ فيك.»

وكانت تتكلم بصوت خافت.

وعندما انتبه داوسن إلى نزولهما، أقبل إلى الردهة فذهبت بينيلوب إليه تقول: «لشد ما أنا مسرورة لرؤيتك مرة أخرى يا داوسن. أخبر زوجتك بأنني آسفة جداً لأن لا وقت لدي للذهاب إلى المطبخ والتحدث إليها. ولكنني سآخذ الآنسة أورسا معي لقضاء عدة أيام عندي، إذ أنني واثقة من أن ذلك سيحدث في نفسها تغييراً حسناً.»

فقال داوسن: «هذا صحيح يا سيدتي، حيث أن الآنسة أورسا تجد المكان موحشاً في غياب أبيها.»

فقالت بينيلوب: «إنني مدركة لذلك. على كل حال، إن رعاية كل شيء متروك كالعادة، وستعود الآنسة أورسا قبل عودة أبي.»

وأثناء ذلك، كانت قد خرجت من الباب حيث صعدت إلى العربة المقفلة التي كانت أورسا قد سبقتها للجلوس فيها. وأغلق عليهن الباب خادم يرتدي بذة خدم أسرة براكلي. وحالما جلس بجانب الحوذي تحركت العربة سائرة.

www.rewity.com/vb

وعندما خرجت بهم العربة إلى الطريق العام الذي يقود إلى القرية، قالت أورسا: «لا أستطيع أن أصدق تماماً... ما يحدث يا بينيلوب، لشد ما أنا خائفة من أن أخذلك. أفرضي أن حماتك قد... داخلتها الريبة؟»

فأجابت بينيلوب: «لقد سبق وأخبرتك بأنها ضريرة. وقد حسبت أثناء الطريق إلى هنا عدد المرات التي قابلتني فيها في حياتها وهي أربع فقط.»

نظرت أورسا إلى أختها ذاهلة: «هل هذا صحيح؟»

أجابت بينيلوب: «صحيح طبعاً. إنها لم تأت إلى حفلة الزفاف لأنها، بالنظر إلى أنها ضريرة، لم تكن تحب السفر إلى لندن، أو إلى أي مكان آخر.»

وكانت تتكلم بلهجة لاذعة ثم تابعت تقول: لقد ذهبنا أنا وبراكلي مرة إلى منزل براكلي قبل الزواج، وذهبت مرة مع أبي بينما كنت أنت ما تزالين في المدرسة. وبعد ذلك ذهبت مرتين بعد أن طلب مني آرثر مرافقته.»

ولم تتكلم أورسا، بينما استمرت أختها تقول: «لقد كان المكان كئيباً مملاً للغاية، وكم كنت مسرورة إذ أغادره.»

قالت أورسا مترددة: «أفرضي أنها ألقت علي أسئلة لم أستطع الاجابة عليها؟»

فردت عليها: «ليس أمامك إلا أن تدبري أمرك. المفروض أنك الذكية في الأسرة ولن يعجزك أن تجيبي على سؤال توجهه امرأة ضريرة.»

فقالت أورسا بخضوع: «سأحاول... جهدي، ولكن عليك ألا تغضبي مني إذا أنا... أفسدت كل شيء.»

فردت عليها: «بل سأغضب جداً، ولكن كل ما يهمني هو

أن يظن آرثر أنني مستكينة بجانب والدته، عند ذلك لن يجد سبباً يجعله يتصور أنني ما زلت في بيتي.»

فسألتها: «وعندما... يعود؟»

«سأكون في انتظاره في لندن.»

وبقيتا فترة صامتين، قالت بعدها أورسا: «كنت دوماً، يا بينيلوب... أرجو لك... السعادة البالغة عندما... تتزوجين.»

فقالت بينيلوب مؤكدة: «إنني سعيدة فعلاً.»

واستدارت أثناء حديثها، تنظر إلى أختها: «عندما أرى مبلغ التغير الذي حصل لك، لا أستطيع أن أتصور كيف يمكنك أن تمكثي في الريف بين القرويين دون أن تصري على أبيك لكي يأخذك إلى لندن.»

وفكرت أوراسا برغمها، بأن أختها إذا كانت حقاً حريصة على أنها يجب أن تذهب إلى لندن،كان عليها أن تدعوها لتنزل في ضيافتها.

ولكنها فقط أجابت بهدوء: «إنني سعيدة لكوني مع أبي. إنك تعرفين مبلغ اهتمامي بعمله. وعندما ترسل إليه، أو يعثر على مستندات أثرية يضيفها إلى مكتبته، أشعر بسرور بالغ.»

فتنهدت بينيلوب قائلة: «دوماً كنت أجد عمل أبي كئيباً مملاً. كما تعلمين أنني لم أصلح قط لتعلم اللغات الاجنبية.»

وكانت أورسا تعرف صحة هذا.

فقد كانت بينيلوب تجد صعوبة بالغة حتى بمجرد الالمام باللغة الفرنسية.

وتابعت العربة طريقها. وعندما شعرت أورسا بأنهم أصبحوا في نهاية الرحلة، قالت بسرعة: «أنا واثقة من أن هناك أشياء كثيرة أخرى تتعلق بحماتك كان ينبغي أن تخبريني بها. من كانت قبل زواجها؟»

«لم تكن من أسرة ذات أهمية خاصة. ولكن ليس لدي وقت لكثير من الأسئلة عن شخص لا أراه.»

وعندما انتهت من حديثها، انحنت إلى الأمام قائلة: «ها قد وصلنا، أخيراً.»

فبدت الدهشة على وجه أورسا.

وأوشكت أن تلقي بسؤال، عندما قالت بينيلوب: «هنا سأتركك. والآن، تذكري أنك منذ هذه اللحظة أصبحت اللايدي براكلي ولم تعودي أورسا. وأرجوك أن تجتهدي في اطراء حماتي وبعث السرور في نفسها وذلك كي تخبر ابنها كم كنت طيبة معها.»

وكانت العربة الآن قد توقفت، وفتح الخادم الباب.

ودون أن تقول بينيلوب شيئاً، نزلت من العربة ثم أسرعت داخلة المكان من بابه الرئيسي.

أما ماري التي كانت جالسة على صندوق خشبي، فقد نزلت من العربة، ثم عادت تصعد إليها لتجلس على المقعد الأمامي الضيق وظهرها إلى الخيل.

وأغلق الخادم الباب ثم تابعت العربة سيرها. كان كل ذلك قد حدث بسرعة بالغة.

وعندما أصبحت الآن مع ماري، أخذت تحدثها باللغة الفرنسية ما بعث السرور في نفس هذه، فقالت لها: «إنك تتكلمين لغتي كأنك باريسية، يا آنسة. كيف أمكن أن

تتحدثي بها بهذة الطلاقة، بينما سيدتي اللايدي تتحدث بها بتلك الرداءة؟»

أجابت أورسا: «لقد كان أبي يصر على أن يعلمني عدة لغات لأستطيع بذلك، مساعدته في عمله.»

عند ذلك أخذت ماري تتحدث عن موطنها، وعن جمال باريس.

فأدركت أورسا أن الفتاة تحن إلى وطنها. فهي تعيش في منزل لا يتكلم فيه لغتها أحد ما جعلها تشعر بوحدة بالغة.

فأخذت تشجعها على متابعة الحديث، وعندما علمت كل شيء عن أسرتها، أخذت تسألها عن حياتها في لندن.

فقالت ماري: «لقد جئت إلى لندن لأن سيدتي تمنحني أجراً جيداً جداً. ولكنني بشوق إلى موطني، وطبعاً لخطيبي هناك.»

سألت أورسا: «هل أنت مخطوبة؟ لا بد أن ابتعادك عنه هو أمر محزن جداً لك.»

فقالت ماري: «نحن الاثنان نكد ونتعب لنجمع المال، يا آنسة. وعندما أعود إلى فرنسا سيكون لدي مهر كبير. وكذلك خطيبي جاك يوفر نقوده لكي نستطيع شراء بيت صغير في باريس، وكل ما نحتاج إليه.»

شعرت أورسا بالسرور وهي تستمع إلى هدفها المثالي هذا.

وكانا ما يزالان يتحدثان عن مستقبل ماري عندما وصلت بهما العربة إلى بوابات المنزل.

قالت أورسا: «ها نحن قد وصلنا. ماري، ساعديني على

ألا أقترف أية غلطة. إن اللايدي ستغضب مني جداً إذ
انكشف أمري كمحتالة.»

فقالت ماري: «إنك في أمان، يا آنسة، إنك تشبهين الآن
سيدتي جداً جداً.»

فابتسمت أورسا قائلة: «شكراً يا ماري وعليك أن تستمري
في العمل على أن أبقى شبيهة لها جداً، إلى أن أعود إلى بيتي.»

فقالت ماري: «سأقوم بذلك يا سيدتي.» وشددت على
كلمة يا سيدتي ما جعل أورسا تفكر في أنها منذ الآن يجب
ألا تبدو فقط شبيهة لأختها، بل أن تفكر مثلها أيضاً.

* * *

رأت أورسا أن منزل براكلي هو من طراز منازل أوائل
العهد الفيكتوري. كما أنها لم تره ذا جمال خاص.

ولكنه كان يؤثر في النفس بمساحته ومتانة بنيانه.

كما أن حديقته كانت جميلة المنظر والتنظيم ووقفت
العربة أمام الباب الأمامي.

هبط خادم على الدرجات التي كانت مفروشة بسجاد
حمراء، ثم فتح باب العربة فنزلت منها أورسا.

سارت إلى الداخل، شاعرة بالخجل، حيث استقبلها رئيس
الخدم وهو يقول بأدب: «أهلا بسيدتي اللايدي. إن سيادته
تتطلع بشوق إلى وصولك، وهي في انتظارك في قاعة
الجلوس.»

سار أمامها، فتبعته أورسا وهي تتأمل الردهة التي خيل
إليها أنها على شيء من صرامة المظهر، وتنفضها الرقة
والجمال فتح رئيس الخدم الباب معلناً:

«سيادة اللايدي، يا سيدتي اللايدي.» دخلت أورسا وقد
تسارعت خفقات قلبها بشكل هائل.

كانت المرأة تجلس على كرسي بجانب المدفأة وذلك في
آخر القاعة.

عندما اقتربت أورسا منها، رأت أنها ما زالت جميلة، وقد
ساد ملامحها الرقة وكانت ترتدي ثوباً أسود.

قالت بصوت هادىء: «يا عزيزتي بينيلوب، لشد ما أنا
مسرورة بحضورك إلينا. وكم كانت سعادتي كبيرة حين
تلقيت رسالة من زوجك تخبرني بقدومك.»

«لقد سافر إلى طنجة، وقد أرادني أن أمكث معك أثناء
غيابه.»

أجابت اللايدي الأرملة: «وهذا ما قاله في رسالته ورغم
سروري بمكوثك معي هنا، فإنني أخشى أن تفتقدي أيام
لندن المرحة.»

فقالت أورسا: «إن التغيير شيء حسن.»

قالت اللايدي: «إجلسي، يا ابنتي العزيزة. سيحضر إلينا
جونسون الشاي، وأنا واثقة من أنك بحاجة إليه بعد رحلتك
الطويلة تلك.»

قالت أورسا: «سيكون هذا شيئاً ساراً.»

أدركت، وهي تتأمل الأرملة أنها كانت في الواقع ضريرة
تماماً.

وطمأنها هذا إلى أن أمرها غير معرض لخطر الاكتشاف
من ناحيتها.

وأخذت تتكلم عن الريف ومبلغ استمتاعها بالرحلة، إلى
أن أقبل رئيس الخدم بالشاي يعاونه اثنان من الخدم.

www.rewity.com

قالت لها اللايدي: «أرى أن عليك أن تسكبي لي الشاي.»

أجابت أورسا: «نعم، بالطبع، ويجب أن تخبريني ما إذا كنت تريدين معه سكراً وحليباً.»

ثم ناولتها الكوب بعد ملئه وسألتها عما تريد أن تأكل معه.

أجابت اللايدي براكلي: «إني غير جائعة، ولكن لا بد أنك كذلك، إلا اذا كنت، كمعظم سيدات هذه الايام، تخافين على صحتك.»

أجابت أورسا: «إن صحتي جيدة.»

ضحكت الأرملة وهي تقول: «إني أتذكر ما كان قاله لي آرثر وهو يصفك لي.»

فلم تعرف أورسا ما يجب عليها قوله، فبقيت صامتة، بينما تابعت اللايدي تقول:

«لقد جعلت ابني سعيداً جداً، يا عزيزتي، عندما أخبرني بأنه سيتزوجك، تملكني القلق للفارق بين عمريكما.»

وسكتت كأنها تتذكر، ثم تابعت:

«حيث أن آرثر كان في الثانية والاربعين فقد ظننت أنه سيكون أكثر سعادة مع امرأة أكبر سناً، ولكنني كنت مخطئة.»

فتمتمت أورسا: «إنني مسرورة لكوني جعلته... سعيداً.»

ولم تستطع إلا أن تفكر في مبلغ الخطأ في الاحتيال على هذه المرأة المسنة الرائعة.

ولكن لم يعد في إمكانها عمل شيء تجاه هذا الامر الآن، وتابعت اللايدي تقول:

«لقد تمنيت أن تنجبا ولداً، ولكن طبعاً، ما زلت أنت

صغيرة جداً، وأنا واثقة من أنكما سترزقا بطفل عن قريب.»

فقالت أورسا متعلثمة: «إنني... إنني واثقة من أن... أمنيك ستتحقق.»

قالت اللايدي: «أرجو أن تسامحيني إذا كنت أسبب لك إحراجاً. ولكن شعوري بالوحدة من القوة بحيث أنني، عندما أتحدث إلى أحد، أبدأ بالتعبير عن مشاعر، ربما علي أن أحتفظ بها لنفسي.»

أجابت أورسا: «أرجوك أن تتحدثي إليّ بما تشائين. وأرجوك أن تدعيني أقرأ لك أثناء وجودي هنا.»

فرفعت الأرملة حاجبيها قائلة: «إني أتذكر عندما مكثت هنا منذ عام، قولك بأنك لا تحبين القراءة بصوت مرتفع.»

أدركت أورسا أنها ارتكبت غلطة، فأسرعت تقول: «أظن ذلك كان لأنني خفت أن أخيب أملك في نوع قراءتي. إنما الآن، أحب كثيراً أن أقرأ لك ما تشائين.»

وتذكرت كم كانت تقرأ لأبيها بصوت مرتفع. كما رأت مبلغ أنانية بينيلوب وهي ترفض القراءة لحماتها العمياء.

قالت الأرملة: «عليك أن تذهبي إلى المكتبة وتختاري كتاباً ترينه يهمنا نحن الاثنتان وأخشى ألا يكون هناك روايات حديثه، ولكنني واثقة من أنك ستجدين شيئاً ممتعاً لنا معاً.»

فقالت أورسا: «أنا واثقة من ذلك، وغداً ربما، بالخيال، سنستمتع بالسفر إلى بلد آخر.»

ضحكت اللايدي الأرملة وقالت: «كم يسرني هذا. والآن، إذا كنت قد انتهيت من تناول الشاي، فأنا واثقة من أنك تحبين الصعود لترتاحي قليلاً قبل العشاء. وهذا شيء أقوم

أنا به على الدوام. كما أنني أتوقع أن تكوني متعبة بع
رحلتك الطويلة هذه.»

قالت أورسا وقد تذكرت أنه كان من المفروض أ
بينيلوب قادمة الآن من لندن البعيدة المسافة: «نعم. طبعاً

قرعت الأرملة جرساً ذهبياً صغيراً بجانب كرسيها، وإ
بالباب يفتح على الفور ويدخل جونسون.

قالت له: «أرسل إلي مارتا لكي تأخذني إلى جناح
فارتاح قليلاً قبل العشاء.»

أجاب جونسون: «إن مارتا هنا، يا سيدتي اللايدي.»

ودخلت خادمة مسنة متجهة نحو كرسي اللايدي الن
قالت لها: «نحن الاثنتان سنصعد لنرتاح، يا مارتا.» وأدار
رأسها نحو أورسا وقالت:

«أتذكرين مارتا، يا بينيلوب؟ إنها عندي منذ ثلاثين
عاماً، وأنا لا أستطيع البقاء من دونها.»

فمدت أورسا يدها إليها وقد تملكها الخوف من أن تهتز
مارتا قائلة بأنها ليست زوجة السيد آرثر.

ولكن مارتا قالت: «لقد كان هذا منذ وقت طويل، يا
سيدتي اللايدي، حتى أنني ظننتك نسيتنا.»

فقالت أورسا بسرعة: «كلا، بالطبع. كل ما في الأمر أ
آرثر مشغول دائماً إلى حد لا تسنح لنا معه فرصة الابتعا
عن لندن أو وندسور.»

ساعدتها مارتا على النهوض من كرسيها، ثم اتجهت به
نحو الباب بينما كانت أورسا تقول: «نعم. هذا صحيح. وه
دوماً يستدعونه إلى وندسور.»

فقالت الأرملة: «إن ما أتمناه فقط هو أن أراه أكثر من

أراه الآن. ولكن عليّ أن أكون أنانية وأنا أعلم أنه يكرس
وقته لخير البلاد.»

وإذ تبعتهما أورسا إلى الطابق الأعلى، أخذت تفكر في
أنها تجاوزت الآن، بنجاح عقبتين.

أولاً، كان من الممكن أن يدرك جونسون أنها ليست
بينيلوب، والآن مارتا.

وعلى كل حال، لقد تأكدت الآن من أن الشك لم يراودهما.

وما أن تبعت حماة أختها في الممر، حتى شعرت
بالارتياح، ما جعلها تدرك كم كانت خائفة حين وصولها.

وحدثت نفسها بأن كل شيء الآن هو على ما يرام، وأن
ليس عليها سوى أن تجعل هذه السيدة الحبيبة سعيدة أثناء
وجودها معها.

الفصل الثالث

سألت اورساماري: «هل سبق ورأى كثيرون من الخدم هنا، أختي من قبل؟»

أومأت ماري قائلة: «نعم، يا سيدتي اللايدي. ولكن مديرة المنزل قالت إنك تبدين صغيرة السن وأجمل أيضاً مما كنت عندما رأتك آخر مرة.»

فخافت أورسا من أن تكون مديرة المنزل قد تملكتها الريبة.

فقالت ماري: «لا تقلقي يا سيدتي. إن كل شيء على ما يرام، وهم ليسوا أذكياء تماماً.»

كانت تتكلم بازدراء ما جعل أورسا تبتسم، ذلك أن الباريسيين يرون أنفسهم دوماً أذكى وأسرع بديهة من سائر الناس في مختلف بقاع العالم وحتى من بقية الفرنسيين أنفسهم.

كانت أورسا واثقة من أن ماري ستتباهى بذكائها بين المستخدمين.

شكرتها أورسا وتحولت تهبط السلم إلى الطابق الأسفل.

كانت الشمس ما زالت تسطع في الخارج حيث أن اللايدي كانت تحب أن تتناول عشاءها مبكراً.

وعندما دخلت قاعة الجلوس، وجدت اللايدي قد سبقتها إليها.

عندما جلست أورسا، قالت اللايدي: «كنت أفكر يا

بينيلوب في أيّ كتاب سنقرأه، فأنا أريد كتاباً يهمك كما يهمني.»

أجابت أورسا: «أظنني أهتم بكل بقاع الأرض.»

وسكتت في الوقت المناسب عن أن تقول انها سبق وقامت بأسفار عديدة.

لم يكن لديها فكرة عما إذا كانت بينيلوب قد قامت ببعض الأسفار منذ زواجها.

فإذا كان هذا قد حدث فمن المحتمل جداً أن ذلك لم يكن أبعد من باريس.

ولا بد أنها وجدت تلك المدينة أكثر جمالاً من لندن.

من المؤكد أن بينيلوب لم تذهب إلى أيّ من البلاد التي ذهبت هي إليها مع والدها.

وكانت تلك الأمكنة بدائية في أغلب الأحيان.

قالت اللايدي التي كانت هي أيضاً غارقة في سلسلة أفكارها: «من الطبيعي أن أهتم باليونان بشكل خاص ولكن ربما تجدين هذا الموضوع كئيباً.»

أجابت أورسا: «كلا، أبداً إن اليونان في الواقع، تعجبني. ولكن لماذا تهتمين بها بالذات؟»

ابتسمت الأرملة، وقالت: «لا بد أن ارثر كان أخبرك بأن دماً يونانياً يسري في عروقي.»

فقالت أورسا بلهجة الاعتذار: «لقد تذكرت الآن طبعاً. ولكن حدثيني الآن عن ذلك.»

ابتدأت اللايدي قائلة: «كانت أمي نصف يونانية، إذ أن والدها والذي كان جدي بطبيعة الحال، هو من أسرة معروفة في داما سيوس في اليونان.»

هتفت أورسا: «كم هذا ممتع إننا طبعاً سنقرأ كتاباً عن اليونان وخصوصاً دلفي التي كانت دوماً تثير اهتمامي.»

وما أن انتهت من حديثها، حتى دخل جونسون يعلن: «العشاء جاهز يا سيدتي.»

عندما جلستا حول المائدة، رأت جونسون يسكب طعام اللايدي لأجلها.

وأكلت هذه معظمه بالملعقة فكانت على كل حال، تتناوله بأناقة بالغة ما أثار عجب أورسا وهي تراها تأكل بمثل هذا النظام دون أن تثير الفوضى حولها.

كان الطعام ممتازاً، وانكليزياً مائة بالمائة. تساءلت أورسا عما عسى أن تقوله مضيفتها لو أنها أخذت تصف أصناف الطعام الغريبة التي كانت تأكلها أثناء وجودها في البلاد الأجنبية مع والدها.

ولكنها عادت فتذكرت ما قاله لها يوماً أحد الأشخاص من أن على الشخص الذي يريد أن يتنكر بشخصية شخص آخر، فإن المظهر والحديث لا يكفيان بل عليه أن يفكر بعقلية الشخص الذي يتظاهر بأنه هو.

وحدثت نفسها بأن عليها أن تفكر بعقلية بينيلوب.

بدا أن اللايدي مسرورة بوجود شخص تتحدث إليه بدلاً من الوحدة التي تعانيها.

وحدثت أورسا بقصص عن ابنها آرثر عندما كان صبياً صغيراً.

كذلك قالت كيف أن أباه أصرّ على تعليمه جيداً.

«لو كان زوجي حياً، لشعر بالسرور إذ يرى آرثر قد أصبح بمثل هذه الخبرة في الشؤون الخارجية.»

أجابت أورسا: «وهذا يعني طبعاً، أن عليه أن يسافر إلى الخارج أغلب الأحيان.»

أجابت اللايدي: «ولكن ليس بالكثرة التي اعتادها من قبل. إنني أشعر بالأسف لأجلك يا ابنتي بينيلوب وأنا أراك متروكة في لندن بينما آرثر يطوف أنحاء اوروبا.»

أخذت تحدثها عن أشياء كانت بينيلوب قد قامت بها عندما كانت طفلة.

ووصفت لها منزلهم وحديقتهم.

فقالت اللايدي: «إنني مغرمة بالأزهار. والتعزية الوحيدة لي في عدم استطاعتي رؤيتها هي أن بإمكاني شم عبيرها.»

قالت أورسا: «يقولون دوماً بأن الكفيف ترهف أحاسيسه الأخرى نحو الأشياء، مثل الموسيقى، وطبعاً عبير الأزهار.»

قالت اللايدي: «أظن هذا صحيحاً.»

ولم يستغرق العشاء وقتاً طويلاً، عند ذلك سار جونسون برفقة اللايدي عائداً بها إلى قاعة الجلوس.

وعندما غادر، قالت أورسا: «هل أذهب الآن إلى المكتبة لأبحث عن كتاب، أم ننتظر إلى الغد؟»

قالت: «إنني أستمتع حالياً بالحديث معك، يا ابنتي بينيلوب، إلى حد أرى فيه أن ننتظر إلى غد.»

وما أن انتهت من كلامها، حتى دخل جونسون يعلن: «السيد غاي من شارنوود، يا سيدتي.» فاستدارت أورسا تنظر بدهشة، بينما هتفت اللايدي بسرور.

وإذا بشاب يدخل إلى القاعة بسرعة، قائلاً: «مساء الخير يا جدتي. إني واثق من دهشتك لحضوري.»

فمدت اللايدي الأرملة يديها الاثنتين: «أهو أنت يا غاي!
لا أكاد أصدق ذلك.»

فأمسك غاي بيديها وانحنى يقبل رأسها قائلاً: «إنه أنا
حقاً، وقد عدت إلى انكلترا منذ ثلاثة أيام.»

قالت: «لقد كنت ابتدأت أفكر في أنني لن أراك مرة أخرى
أبداً. آه، ما أشد سروري بوجودك هنا.»

أجاب: «ومتمتعاً بالصحة والعافية ولكنني واقع في
مشكلة، يا جدتي.»

«في مشكلة؟ آه يا غاي. ماذا حدث الآن؟»

ثم، وكأنها تذكرت فجأة أنهما ليسا وحدهما، قالت: «إنك
طبعاً تعرف بينيلوب، زوجة آرثر!»

وما أن قالت ذلك، حتى حبست أورسا أنفاسها، وقد لمع
في ذهنها أن أمرها على وشك الافتضاح.

«كلا، يا جدتي، إننا لم نتقابل قط لقد كنت في الخارج
عندما تزوجا وما زلت غائباً منذ ذلك الحين، إما هناك وإما
في الريف.»

سكت ثم ابتسم لأورسا وهو يتابع: «ولكنني، بالطبع
سمعت الكثير عن اللايدي براكلي.»

سألته بدهشة: «لم تتقابلا مطلقاً؟ إذن، فمن حسن الحظ
أنها هنا لمرافقتي، لأن آرثر قد ذهب إلى طنجة.»

«إنني مسرور للمشاركة في الاحتفاء بك، يا بينيلوب
هذا إذا سمحت لي بمناداتك باسمك.»

سألته اللايدي: «هل قلت انك في مشكلة، يا غاي؟»

قال: «إنني في مشكلة كبيرة، وهذا هو السبب في إسراعي
إلى هنا قادماً من شارنوود لكي أطلب منك مساعدتي.»

وجذب كرسياً بجانبه جلس عليه. وفي هذه الأثناء، دخل
جونسون حاملاً صينية عليها إبريق يحتوي على عصير
الفاكهة وضعها على منضدة صغيرة.

فقال له غاي: «اسكب لي كوباً، يا جونسون. فأنا أشعر
بظمأ بعد هذه الرحلة السريعة التي قمت بها.»

أجاب جونسون: «لقد أخذ حوذي عربة سيادتك إلى
الاصطبل. وقد فهمت أن سيادتك ستبيت اليوم هنا.»

فقال غاي للايدي: «هذا ما أريده إذا كنت تقبلين
باستضافتي، يا جدتي. فأنا أكره بشكل خاص، السفر في
الظلام.»

قالت الجدة: «كلا، يجب ألا تقوم بذلك بالطبع. وأنت
تعرف مبلغ سروري باستضافتك.»

سكب جونسون العصير، ثم غادر.

رشف غاي قليلاً من كوبه، قبل أن يقول: «سأخبرك الآن
بسبب حضوري.»

نظرت أورسا إليه وقالت: «ربما تفضل أن تكون مع
جدتك بمفردكما، وفي هذه الحالة، سأنسحب.»

أجاب غاي: «كلا كلا، أبداً. فأنت فرد من الأسرة. وأؤكد
لك أنها مشكلة عائلية تقريباً.»

وضع غاي يده في جيب معطفه، ثم أخرج منها رسالة
ألقى عليها نظرة ثم ابتدأ يقول: «كما تعلمين يا جدتي، فقد
سافرت إلى الهند بدعوة من نائب الملك الذي احتفى بي
بشكل رائع، وقد استمتعت بوقتي هناك كثيراً وعندما كنت
في كالكوتا، أروني اثنتين من بوارجنا الحربية حيث رأيت
أنه ينقصها الكثير من المعدات والتحسينات الحديثة.»

سكت قليلاً، ثم تابع يقول: «أعني لتلك البوارج التي تبنى حالياً في بلادنا هنا.»

قالت جدته: «إنك دوماً كنت مجنوناً بالسفن عندما كنت صبياً صغيراً. كان علينا حقاً أن نرسلك إلى البحرية.»

أجاب غاي: «طالما فكرت في ذلك أنا نفسي. على كل حال، فإني الآن منغمس تماماً في الشؤون البحرية.»

سألته: «وكيف ذلك؟»

«حدث، عندما كنت أشرف على تحديث البوارج في الهند، أن تلقيت دعوة من أليكسيس اوريستيس.»

قالت اللايدي: «إنه رجل يوناني.»

أجاب: «وهو رجل هام جداً. فهو يحتل في أثينا مركزاً يعادل في بلادنا مركز الأميرال.»

عادت اللايدي تقول: «وأنت تلقيت دعوة منه!»

«إنها بمثابة الأمر وليس دعوة عادية، لأنه طلب مني باسم ملك اليونان زيارة أثينا في طريق عودتي من الهند إلى الوطن.»

تمتمت اللايدي: «ما أروع هذا.»

«وعندما وصلت إلى هناك، وجدت أن الملك كان قد تلقى نصيحة من أوريستيس بالأمر ببناء بارجتين جديدتين للأسطول اليوناني وهو يريد أن يتمّ بناؤها في بريطانيا، وعليّ أن أضمن أنها تحتوي على كل المعدات والمواصفات التي كنا تحدثنا عنها عندما كنت في الهند.»

قالت اللايدي: «ما أروع هذا يا غاي. من الواضح أنك ستستمتع بمثل هذا العمل.»

فقال: «لقد سررت بذلك فعلاً عندما أخبروني به. ولم يكن

هنالك شك في أن البحرية اليونانية بحاجة إلى التحديث.»

سألته اللايدي: «أين هي المشكلة إذن؟»

أمسك الماركيز بالرسالة، وقال: «هذه هي، يا جدتي. إنها رسالة تلقيتها هذا الصباح من أوريستيس. إنني أريدك أن تترجميها لي. إن لديّ فكرة من محتواها، ولكنني وإن كنت اتكلم من اليونانية، ما يكفي للتفاهم، في المطعم على الأقل، أجد قراءتها صعبة عليّ جداً.»

فقالت الجدة: «ولكن لا بد أن لديك كثيراً ممن يمكنهم قراءتها لك.»

سادت فترة صمت عاد غاي بعدها يقول: «أعتقد أن ما تحويه هذه الرسالة هو، حسب ما أمكنني فهمه منها، هو شيء خاص للغاية لا أريد أن يعرفه أو يتحدث عنه أحد خارج نطاق الأسرة.»

فقالت جدته: «فهمت. إقرأ لي الرسالة إذن، يا غاي فأترجمها لك.»

فأخذ يقرأ الرسالة بصوت مرتفع.

كان واضحاً لأورسا أنه لم يكن يفهم ما كان يحاول قراءته.

ودون أن تفكر، اندفعت تقول: «دعني أقرأها لكما.»

نظر إليها غاي بدهشة، ثم سألها: «هل يمكنك قراءة اليونانية؟»

ادركت أورسا، بعد فوات الأوان، انه كان عليها أن تدعي الجهل.

فقد كانت بينيلوب تكره اللغات الأجنبية ولم تحاول قط تعلم التكلم بها.

ولكن قبل أن تفكر في إيجاد تعليل لمعرفتها باللغة اليونانية، قالت اللايدي: «إن بإمكان بينيلوب، بالطبع، أن تتكلم اليونانية، كذلك لغات أخرى عديدة. انك تعرف، يا غاي أن أباها هو ماثيو هولينغتون.»

«نعم، بالطبع. لقد نسيت ذلك، ولا يمكنني سوى أن أقول كم أنا شاكر لوجودك هنا في هذه اللحظة بالذات التي احتاجك بها.»

وكان قد ناولها الرسالة أثناء حديثه، فأخذتها أورسامنه.

رأت الرسالة مكتوبة بخط يدوي واضح، وكان سهلاً عليها ترجمتها.

وببطء، أخذت تترجمها.

السيد غاي.

كان سروري كبيراً لرؤيتك حين حضرت إلى اليونان تلبية لدعوتي، كما أن الملك سره عرضك الذي قدمته وهو أنك ستشرف شخصياً على بناء البارجتين الحربيتين اللتين أمرنا ببنائهما.

إنني أكتب إليك الآن لأقول: «إنني، بدعوة من الملكة فيكتوريا، سأصل إلى انكلترا في نفس الوقت تقريباً الذي ستتلقى فيه رسالتي هذه التي أرسلها عبر البريد الدبلوماسي. عليّ أن أكون في وندسور يوم الاثنين في الثاني عشر من الشهر الجاري، حيث سأحظى بمقابلة خاصة مع الملكة.

وعلى كل حال، سيكون وصولي يوم السبت فيمكنني، بهذا أن أغتنم الفرصة وأقبل دعوتك الكريمة لزيارة شارنوود.

إنني سأحضر إبنتي إميليا معي ولا شيء يسعدني أكثر من أن تطلب يدها مني أثناء وجودنا عندك في شارنوود.

وبالنظر لدعوتكم الكريمة لاستضافتنا، سنصل أنا وابنتي إلى منزلكم العامر بعد ظهر يوم السبت.

إن السفارة اليونانية تقوم بكل التدابير ونحن نتطلع بشوق إلى الاجتماع بك مرة ثانية.

مع تحياتي وتمنيات طيبة من زوجتي وسائر أفراد أسرتي.

صديقك المخلص دوماً أليكسيس أوريستيس.

ساد صمت شامل لحظة من الزمن قالت بعدها اللايدي: «إن ما يريده منك هو واضح تماماً، يا غاي. هل ترغب في الزواج من هذه الفتاة؟»

أجاب بشدة: «لا. كلا طبعاً.»

«ولكن لا بد أنك منحتها سبباً جعلها تعتقد أنك تريدها.»

«كنت مستميتاً، يا جدتي لكي يقبل اليونانيون بشراء بوارجنا. وأوريستيس هو الرجل الوحيد الذي لديه السلطة في قبول أو رفض ما أعرضه عليه. وهكذا ذهبت لرؤيته في اليونان. وكما تعرفين، الضيافة في اليونان هي عبارة عن شأن يشمل الأسرة جميعاً.»

سكت برهة تابع بعدها يقول: «كانوا جميعاً موجودين. وهم كثيرو العدد، ليس ابناؤه وبناته فقط، ولكن أيضاً جدته وعماته، وأعمامه وأخواله، هذا إلى هذه الشابة التي تدعى إميليا. إنها ابنته الكبرى، وحيث أنها جلست إلى المائدة إلى جانبي، فقد كان من الطبيعي أن أكلمها.»

تابع قائلاً: «لم يخطر ببالي لحظة أنه سيطلب مني الزواج

منها. في ذلك الوقت بالذات، كان ذهني منصرفاً إلى البوارج أكثر مما كان منصرفاً إلى مثل هذه الأمور.»

«ولكنها كانت تفكر بك.»

فقال: «لقد أدركت ذلك الآن. ما الذي عليّ أن أفعله الآن يا جدتي؟ ليس بإمكاني رفض رؤيته، لأنه إذا شعر بالإهانة فسيخبر الملكة يوم الاثنين بأن اليونان ستبني بوارجها في مكان آخر، فماذا سيكون موقفي أنا عند ذاك؟»

قالت الجدة: «إنها مشكلة حقاً، يا غاي المسكين. إنك في موقف بالغ السوء.»

فقال بتعاسة: «أعلم ذلك جيداً.»

مشى نحو المدفأة، ثم قال: «لم يخطر لي قط أن أوريستيس قد يريدني صهراً له، أو أن ابنته يجب أن تتزوج من خارج بلادها.»

سكت لحظة، ثم تابع يقول: «إنني، إذ أفكر في أيامي هناك، كان عليّ أن أنتبه إلى أن إميليا كانت معنا على الدوام كانت نادراً ما تتكلم، ولم نكن نلحظ وجودها أكثر الأحيان.»

فسألته اللايدي: «هل هي مثقفة؟»

أجاب متأملاً: «ليس فيها شيء خاص، ولا أظنها على ذكاء كبير.»

«على أية حال، لا يمكنك أن تتزوجها يا عزيزي.»

قال: «أعلم ذلك، ولكن كيف يمكنني تجنب ذلك دون أن يتضمن تصرفي إهانة لأوريستيس؟»

فساد صمت.

وإذا بأورسا تقول بصوت خافت: «ألا يمكنك عندما يصل أوريستيس، أن تقنعه بأنك خاطب وستتزوج قريباً؟»

نظر إلى أورسا وكأنه لم يرها قبل الآن.

بقي صامتاً لحظة قال بعدها: «طبعاً! لماذا لم أفكر في ذلك من قبل؟ إنك ذكية. ذكية تماماً.»

فكر لحظة وكأنه يقلب الأمر على وجوهه، ثم عاد يقول: «ولكن، لكي أجعله يصدق ذلك، ويدرك أن ليس بإمكاني البحث في هذا الأمر، يجب أن تكون خطيبتي إلى جانبي طبعاً.»

قالت الجدة: «نعم، هذا صحيح. وإلا فهو سيعتقد أنك فقط تقدم عذراً لعدم طلب يد ابنته.»

«والآن كيف أجد فتاة تمثل دور زوجة المستقبل؟»

قالت الجدة وقد شاب صوتها رنة ضاحكة: «لا بد أن هناك عدداً من الصبايا سيسرّهن أن يساعدنك.»

فقال متذمراً: «لا يحسن بك أن تقولي ذلك، يا جدتي. إنني دوماً أتوخى الكتمان بالنسبة إلى شؤوني.»

فضحكت وقالت: «إن ثرثرة الناس تسري مع الهواء.»

«لا يمكنني التفكير في من بإمكانها تمثيل هذا الدور، وأنا واثق من أنها لن تتحدث عنه بعد ذلك.»

أومأت الأرملة قائلة: «إنها ستكون كارثة. فعدا عن أيّ شيء آخر، إذا وصلت هذه القصة إلى مسامع الملكة فهي ستغضب جداً.»

«ماذا بإمكاني أن أفعل إذن، يا جدتي؟ هذا هو سبب قدومي إليك. إنك لم تخذليني قط كلما وقعت في مأزق، وذلك منذ كنت في المهد إلى أن أنقذتني من الطرد من جامعة أوكسفورد.»

عادت جدته تضحك وهي تقول: «هذا صحيح، وعليّ الآن

طبعاً أن أنقذك. ولكن مهما حدث، يجب ألا يعلم أحد ماذا سيحدث.»

سكتت، ثم قالت: «بينيلوب! عندما يأتي أصدقاؤك اليونانيون إلى انكلترا، يمكن لبينيلوب أن تمثل دور خطيبتك أثناء اليومين اللذين سيمكثانهما في منزلك.»

قبل أن تقول أورسا شيئاً، قال غاي: «طبعاً إذا هي قامت بهذا الدور، فهي ستكون الشخص المناسب تماماً.» واستدار نحو أورسا قائلاً: «ليس هناك ما يجعلنا نخاف من أن يكون أوريستيس على معرفة بك أو حتى أن يكون سبق له رؤيتك. فهو لم يأت إلى انكلترا منذ أكثر من عشر سنوات وأنا أعرف أن خالي آرثر لم يذهب إلى اليونان بعد زواجه. ما قولك؟»

تمتمت أورسا: «ولكن... ماذا عليّ أن... أقوم به؟»

أجابها: «أقل ما يمكن. عندما أقدّمك بصفتك خطيبتي وهذا طبعاً لم نعلنه رسمياً بعد، لن يكون أمام أوريستيس ما يقوله سوى كلمة تهنئة.»

قالت بصوت خافت: «إني... خائفة من أن... أقوم بشيء خطأ.»

وخطر ببالها ان بإمكانها، حيث أنها تقوم بدور تمثيلي حالياً، بإمكانها أن تقوم بدورين.

قالت اللايدي: «لا تقلقي، يا ابنتي العزيزة، فسأكون معك. إذ أرجو على الأقل، أن يدعوني حفيدي أنا أيضاً. فأنا لا أريد أن أخسر هذه المسرحية المثيرة مهما كلفني الأمر.»

فقال غاي: «إنك طبعاً آتية معنا. إن بإمكانك أن تتحدثي

إلى ضيفنا بلغته موضحة له مبلغ حزنك لأنه لن يكون لك زوجة حفيد يونانية مثلك.»

فقال أورسا: «أظن... لا بأس في هذا.»

وكانت تتحدث في الحقيقة، لنفسها.

ثم تقدم منها غاي، قائلاً: «أعلم أنني أطلب منك شيئاً كثيراً. ولكنني سأكون شاكراً لك جداً إذا أنت أنقذتني من زواج سيكون بمثابة كارثة بالنسبة إليّ. والآن لا أدري كيف سيمكنني رد الجميل إلى جدتي وإلى قريبتي.»

الفصل الرابع

عند الصباح، أسرعت أورسا تهبط السلم لتتناول طعام الافطار.

وجدت أن غاي قد انتهى منه، وذهب إلى الاصطبل.

وكانت قد انتهت لتوها عندما سمعت صوت اللايدي تتحدث إلى الخادمة التي كانت تهبط بها السلم.

فركضت أورسا نحوها في الردهة تحييها.

دخل غاي، في هذه الأثناء من الباب، قائلاً: «صباح الخير، يا جدتي. أرجو ألا يكون النهوض باكراً قد أتعبك.»

أجابت اللايدي: «كلا أبداً. وأنا أنتظر لحظة السفر بشوق تام، لزيارة تشارنوود مرة ثانية.»

قال: «إنك رائعة، وأنت تعلمين مبلغ أهميتك عندي.»

سكت لحظة، ثم تابع قائلاً: «حيث أن عليّ أن أكون في المنزل ساعة وصولكما للترحيب بكما، فأنا سأتقدمكما، وستذهبان أنت وبينيلوب في عربة السفر التي جئت أنا بها. إن سائقي ماهر تماماً رغم أنه سيستغرق في الوصول إلى تشارنوود وقتاً أطول مما أمضيته أنا في حضوري إلى هنا.»

فقالت اللايدي: «هذا يبعث على السرور.» وإذ قاد غاي جدته إلى قاعة الجلوس، دهشت أورسا عندما قال لها: «تعالي معنا. يجب أن نقرر قبل الذهاب، الاسم الذي سنطلقه على بينيلوب.»

أجابت اللايدي: «لقد كنت أفكر في هذا الأمر. ولكي نتجنب أيّ فوضى قد تحصل، فإني أقترح أن تستعمل بينيلوب اسم أختها الصغرى، وذلك لتيسير الأمور.»

«أختها؟ لم أكن أعلم أن لها أختاً.»

أجابت: «إن لماثيو هولينغتون ابنتين، هما بينيلوب، وهي الكبرى، وأورسا.»

ابتسمت وهي تضيف قائلة: «إن الاسم أورسا هو يوناني أيضاً ومعناه عروس البحر وهو اسم يتلاءم تماماً مع موضوع البوارج البحرية هذا.»

«هذا صحيح. وطبعاً، أن يكون لخطيبتي اسم يوناني هو شيء مناسب تماماً، رغم أنني غير متأكد من أن أوريستيس سيقدّر هذا الأمر.»

ضحكت أورسا وهي ترى سخافة هذا الوضع الذي جعلها تعود إلى شخصيتها الحقيقية بالنسبة للسيد أوريستيس، بينما تبقى بشخصية بينيلوب بالنسبة لغاي وجدته اللايدي.

قال غاي: «إذن، فقد انتهى هذا الأمر، وكلما أسرعتما بالسفر كان ذلك أفضل. وأعدكما أن غداءكما عندي في المنزل سيكون شهياً رغم أنه سيتأخر قليلاً.»

أجابت اللايدي: «شكراً يا ولدي الغالي، ولا تقلق بالنسبة إليّ، فأنا أعود عشرين عاماً إلى الوراء كلما صادفني موضوع مشوق مثل هذا.»

وساروا في الردهة بينما أورسا تفكر في أن هذا صحيح تماماً. ذلك لأن أباها كان دوماً يقول إن من الخطأ الكبير أن يتقاعد الرجل أو المرأة مبكراً.

www.rewity.com/vb

وكان يضيف قائلاً: «وبعد ذلك يجلس الواحد منهما دون أن يفعل شيئاً، إلى أن يموت. إن من الأفضل أن يحتفظ المرء ليس فقط بنشاط جسمه وإنما بنشاط عقله أيضاً.»

عندما صعدت اللايدي وأورسا إلى العربة، رفع الحوذي المسن قبعته محيياً.

وفي القسم الخلفي، وضعت الحقائب كما جلست الخادمتان ماري ومارتا.

وكانت أورسا قد أخبرت ماري بكل ما حدث.

وأنها ما زالت تتظاهر بأنها بينيلوب، ولكنها في الوقت نفسه، ستدعي أنها أورسا خطيبة غاي، وذلك أمام السيد أوريستيس.

ولكون ماري فرنسية، فقد تقبلت هذا الموضوع دون اهتمام.

أضافت أورسا: «حيث أن أختي لم تذهب قط إلى تشارنوود، فليس لنا أن نقلق من ناحية المستخدمين.»

فقالت ماري: «ليس أثناء وجودي معها، أما الآن، فعليّ أن أعود إلى مناداتك باسم الآنسة أورسا بدلاً من سيدتي اللايدي.»

فقالت أورسا: «وهذا ما تعودت عليه.»

وأثناء السفر، قالت للجدة الأرملة: «إنها مغامرة حقاً، ورؤية تشارنوود ستكون ممتعة تماماً.»

قالت اللايدي: «بما أنك لم تقابلي غاي من قبل، فلا أظن أن آرثر قد أخبرك بأمره.»

أجابت أورسا: «كلا... إنه لم... يخبرني.»

وأخذت تتساءل عما عسى أن يكون أمره ذاك. وخافت أن تقترف غلطة ما، بالنسبة لما تعرفه بينيلوب عنه.

وكانت الأرملة تقول: «إذن، أظن أن عليّ أن أخبرك بأنه ليس حفيدي حقاً.»

أدارت أورسا رأسها تنظر إلى اللايدي بدهشة وهي تسألها: «ليس حفيدك؟ ولكنه يناديك بجدتي؟»

«نعم. هذا صحيح. ونحن عادة لا نعبأ بإيضاح الأمر أمام الناس. ولكن الأمر يختلف بالنسبة إلى حيث أنك فرد من الأسرة.»

سألتها أورسا: «ولكن... لماذا هو ليس حفيدك؟»

«إنه في الحقيقة ابن زوج ابنتي. إن البكر بين أولادي، هو آرثر، وبعده بسنوات أنجبت ابنتي شارلوت.»

تمتمت أورسا: «يا له من اسم جميل.»

فتابعت الأرملة: «وكانت جميلة جداً. ولكنها تزوجت من رجل يكبرها كثيراً في السن، وهو والد غاي. ولكنه كان متزوجاً من قبل.»

وكانت أورسا تستمع باهتمام بينما هذه تتابع: «وكان زواج مصلحة. وفهمت أنه لم يكن زواجاً سعيداً. وقد ماتت زوجته من مرض الالتهاب الرئوي عندما كان طفلهما في السنة الأولى من عمره.»

ابتدأت أورسا الآن تفهم القصة، ولكنها لم تقل شيئاً.

«كان غاي في السابعة من عمره عندما تزوج أبوه من شارلوت. وكان قد نشأ في بيوت مختلفة لأقاربه، ولهذا كان مبتهجاً عندما انتقل إلى بيت حقيقي وأحب شارلوت جداً وسرعان ما أخذ يناديها ماما وكأنها أمه حقيقة.»

سألتها أورسا: «ألم تنجب ابنتك؟»

أجابت اللايدي: «نعم، لقد أنجبت ثلاث بنات. ولكن الكبرى لم تنجب إلا بعد الزواج بأربع سنوات. وكان هذا أمراً مخيباً للأمل من بعض النواحي، ولكن على كل حال، كان غاي هو الوارث الشرعي.»

«وهل... كبرت البنات؟»

كانت تفكر في أنه ربما كانت بينيلوب قد تعرفت عليهن، ما يجعل وجودها في تشارنوود مثار شكوكهن، رغم أنها قد أصبحت الآن أورسا، وهن لن يعلمن إلا إذا أخبرهن أحد، بأنها تدّعي شخصية أختها.

ولكن اللايدي الأرملة تابعت تقول: «إنهن ما زلن في المدرسة، لكن الكبرى قد تزوجت.»

تنهدت أورسا بارتياح بعد إذ أدركت أن ليس لها ما تخافه من أخوات غاي.

قالت اللايدي بهدوء: «كنت دوماً أرى أن آرثر كان يمتعض من غاي إذ يراه يعتبرني جدته. ولكنه لم يكن طفلاً سعيداً، وقد كنت دوماً أحبه.»

فقالت أورسا: «هذا لا يدهشني وأين هي ابنتك الآن؟» ذلك أنها شعرت بخوف مفاجيء من أن تكون في تشارنوود.

ولكن اللايدي أجابت: «إنها في سومرست في المنزل الذي عاشت فيه منذ وفاة زوجها. وغاي يذهب غالباً لرؤيتها، ولكنني أظنه، حيث أن لشارلوت أولاد، يشعر نحوي بألفة أكثر.»

كانت عربة السفر الآن تسير بسرعة فائقة بحيث أصبح

من الصعب عليهما متابعة الحديث، وبعد فترة أغمضت اللايدي عينيها وبدا عليها أنها ترتاح.

عند ذلك، أخذت أورسا تفكر في نفسها.

رأت أن لا شيء هناك أكثر تشويقاً مما يحدث لها، وحدثت نفسها قائلة إذا أنا لم أقترف أيّ خطأ، فسأتذكر طوال حياتي هذه المغامرة التي لم تمرّ عليّ في أيّ من رحلاتي مع أبي.

* * *

دخلت بهن العربة من خلال بوابة حديدية فخمة، وذلك في الساعة الواحدة والثلث.

وكان هناك طريق طويل يصل إلى المنزل تحف به من جانبيه أشجار السنديان.

لقد كان عليها أن تعلم أن هذا المنزل لا بد وأن يمثل الإطار والخلفية الملائمين لرجل مثل غاي.

كان فسيحاً جداً، كما كان يخفق فوق البرج في مقدمته علم الأسرة.

وعلى الناحيتين قام جناحان يبدو أنهما قد أضيفا فيما بعد، ولكن بانسجام مع الأصل.

كان قائماً على أرض مرتفعة، وفي الأسفل كانت هناك بحيرة شاهدت أورسا، وهم يعبرون الجسر، بعض الأوز يسبح فيها.

كان غاي في انتظارهن على قمة الدرجات الصاعدة إلى المدخل الرئيسي.

وعندما توقفت عربة السفر تماماً، هبط نازلاً على

السجادة الحمراء ليسبق الخادم إلى فتح بابها، وهو يقول: «مرحباً بك في تشارنوود، يا جدتي. لا يمكنني أن أصف مبلغ سروري لحضورك إلى هنا مرة ثانية.»

أجابته: «وأنا أيضاً مسرورة لوجودي هنا يا ولدي العزيز.»

وساعدها غاي في الخروج من العربة، ثم ابتسم لأورسا حيث تبعته، وهو يقول: «يسرّني أن أراك مرة أخرى، يا أورسا.» ورفع صوته قليلاً لكي يسمعه الخادم الذي كان أسرع يهبط الدرجات خلفه.

فقالت أورسا متلعثمة: «وأنا... كذلك مسرورة... بوجودي... هنا.»

قاد غاي اللايدي صاعداً بها الدرجات وما لبثوا أن دخلوا ردهة غاية في الفخامة.

كان هناك سلم من البرونز والبلور، وقباله مدفأة ضخمة من الرخام تخفق على ناحيتها الأعلام.

واتجه غاي باللايدي إلى قاعة بالغة الروعة والفخامة، بدت لأورسا أنها لا بد قاعة الجلوس.

وعلمت فيما بعد أن هناك قاعة للجلوس أكثر اتساعاً وذلك في ناحية أخرى من المنزل.

كان الطعام شهياً فعلاً كما أنه قدم في قاعة طعام هي أجمل ما رأت أورسا في حياتها. وكانت تزين الجدران صور أسلاف العائلة.

ونظراً لفضولها البالغ، حدثها غاي طويلاً عن تلك الصور، منتهياً بقوله: «يجب أن أريك معرض الصور عندنا. فقد كانت هواية أبي جمعها من كل أنحاء العالم. وكنت في

صغري أشعر وكأنني زرت فينيسيا وبلاداً عديدة من الشرق وذلك لكثرة ما كنت أتفرج على تلك الصور وأسمع مربيتي تشرحها لي.»

فقالت أورسا: «وهذا ما كان أبي يفعله معي.»

وتداركت نفسها، في الوقت المناسب، من أن تقول له إنها زالت، فيما بعد، مع أبيها أكثر تلك البلاد.

ولم تنتبه إلى دهشة غاي لكثرة معلوماتها عن اولئك الفنانين الذين كان يتحدث عنهم.

أدرك أيضاً أن بإمكانه أن يتحدث إليها عن الأماكن التي كان زارها، وأنها كانت مهتمة تماماً بكل ما كان يقول.

وبعد الغداء أصرّ على جدته للصعود لترتاح، قائلاً: «لقد تأكدت من أن أوريستيس، والقادم بالقطار يجب أن يكون هنا حوالي الساعة الرابعة. وعند ذلك عليك أن تساعديني، يا جدتي ولهذا أريدك أن ترتاحي إلى أن يحين الوقت.»

أجابت اللايدي: «لن أجادلك في هذا الموضوع، وإنما سأمتثل لما يقال لي.»

فقادها غاي إلى الطابق الأعلى.

وبعد ذهابهما، وجدت أورسا وقتاً للتفرج على القاعة التي كانا فيها قبل الغداء.

كانت تحدّق في لوحة رائعة «لرامبراندت» عندما عاد غاي.

قال: «لدينا الآن وقت قصير قبل أن تبتدىء التمثيلية. ماذا تحبين أن تفعلي؟»

أجابت أورسا: «هناك الكثير مما أرغب في رؤيته.

وحيث أنني خائفة من أن أخسر شيئاً هاماً، فإنني مترددة بين معرض الصور والاصطبل.»

قال: «هذا هو بالضبط السؤال الذي كنت سأوجهه لنفسي في هذه الظروف. إن بإمكاننا، إذ نحن أسرعنا، أن نقوم بالأمرين. دعينا إذن نبدأ بالاصطبل.»

سألته وهي تنتقل من مربط إلى مربط: «كيف احتملت الابتعاد عن جيادك هذه؟»

أجاب: «اعترف بأنني شعرت بالحنين إلى بيتي وجيادي. ولكنني عدت إلى الوطن الآن نهائياً. وأنا أنوي بناء إصطبل كبير للجياد وكذلك إضافة المزيد إلى الخيل التي عندي.»

فقالت باعجاب: «أظنها مكتملة الجودة.»

«أريد جياداً حوليّة، وكذلك بحاجة إلى ما هو في منتهى الأهمية، وهو النوع العربي.»

فكرت في أن أباها، رغم أنه محدود المجال، حيث أنه لم يكن بالرجل الثري، قد تمكن من أن يكون لديه إصطبل ممتاز للخيول.

قال غاي: «سنذهب معاً غداً صباحاً في نزهة وكل ما نتمناه هو ألا يرغب أوريستيس أو ابنته في مرافقتنا.»

فقالت: «سيكون هذا رائعاً.»

وإذ كانا عائدين إلى المنزل، قال: «لا أدري لماذا كان يخطر لي دوماً، عندما كانوا يتحدثون عنك، أنك لست فارسة متحمسة.»

وتذكرت أورسا، متأخرة جداً، ان هذا صحيح بالنسبة إلى بينيلوب.

لذلك أسرعت تتحدث عن معرض الصور الذي كان ذاهبين لمشاهدته، والذي لا بد أن يكون رائعاً.

وكان المعرض ذاك يحتل جدران أحد جناحي المنزل بأجمعها.

وتنقلا من لوحة إلى أخرى.

وكانت هي تمنع نفسها بصعوبة كبيرة من القول انها زارت هذا المكان أو ذاك، وهي ترى الرسوم الرائعة لأمكنة سبق ورأتها.

ولم تدرك طول الوقت الذي أمضياه، ومبلغ السعادة التي تملكتها، إلا عندما نظر غاي في ساعته.

فسألته: «هل حان وقت وصولهما؟»

أجاب: «يجب أن يكونا هنا بعد حوالي عشر دقائق. ربما من الأفضل أن ننزل إلى قاعة الجلوس وننتظرهما هناك.»

وعلمت أن الوقت الذي سيتقدم فيه، بصفتها خطيبة غاي، قد حان.

انطلق صوت رئيس الخدم يعلن: «السيد أليكسيس أوريستيس، يا سيدي والآنسة إميليا أوريستيس.»

وكان لفظه للأسماء بشكل أوشكت معه أورسا على الضحك.

وكانا، هي وغاي بجانب المدفأة.

فاندفع غاي نحو الباب مادّاً يده.

لم يكن أليكسيس أوريستيس مميز ولكن الذكاء كان يبدو على ملامحه، وكان يبدو عليه أنه يوناني مائة بالمائة.

رحب غاي بضيفيه بحماس: «يسرني استقبالكما في

تشارنوود. لشدّ ما أنا مسرور بتفكيركما في القدوم إلى هنا.»

وهز يد أوريستيس، ثم تحوّل إلى إميليا، قائلاً: «أرجو أن سفركما كان مريحاً، وانك غير متعبة.»

أجابت الفتاة بانكليزية سليمة: «شكراً، إنني لست متعبة.»

استدار غاي نحو أورسا وقال: «إن جدتي معي هنا، وستنزل فيما بعد. ولكن الآن، أريدكما أن تتعرفا إلى فتاة لها عندي مكانة خاصة، وأريدكما أن تكونا من أوائل المهنئين لنا.»

نظر اليوناني إليه وفي عينيه نظرة تساؤل.

وعندما وصلوا إلى أورسا، كان غاي يقول: «إسمحا لي بأن أقدّم إليكما الآنسة أورسا هولينغتون والتي هي ابنة السيد ماثيو هولينغتون اللغوي الشهير والذي أنا واثق من أنكما لا بد سمعتما به.»

ابتسم ثم تابع يقول: «لقد جعلتني الآنسة هولينغتون أسعد رجل في الوجود وكان ذلك قبل يوم أو يومين فقط من استلام رسالتك.»

«لا أفهم.»

فقال غاي: «إنك الأول من أصدقائي الذي يعلم الآن أن أورسا وافقت على الزواج مني. وأنا أعلم أنك ستقدم لنا التهاني. وأنا أسر إليك الآن بهذا الخبر لثقتي التامة بك، وسأكون شاكراً إذا أنت لم تذكر ذلك لأحد إذ أنه ما زال علينا أن نخبر أقاربنا. فهم منتشرون في عدة مدن، وهذا الأمر سيستغرق بعض الوقت.»

بدا واضحاً لأورسا أن خيبة الأمل والشعور بالإحباط قد تملكاه.

وعلى كل حال، فهي لم تره غاضباً بشكل خاص، ونظرت إلى ابنته اميليا.

لم يكن يبدو عليها مطلقاً الاستياء وهي تجد أنها قد فقدت الرجل الذي اختاره لها أبوها.

وتساءلت عما إذا كانت حتى قد استشيرت بالنسبة إلى زواجها منه.

وعندما استقر بهم المقام، قال غاي لضيفه: «أتمنى لك يا سيد أليكسيس أوريستيس استمرار نجاحك الحالي في المستقبل، وكذلك التأثير على الملكة فيكتوريا عندما تقابلها يوم الاثنين.»

ضحك الضيف وقال: «أشك أن بإمكان أحد أن يؤثر عليها. إن الملكة ومملكتها تمثلان القوة، فمن بإمكانه أن يتحدى ذلك؟»

ضحك غاي: «اؤكد لك أن كثيرين يحاولون ذلك.»

فقال الضيف: «ولكن الهزيمة بانتظارهم. ونتمنى لكم دوام هذا زمناً طويلاً جداً.»

كانت هذه مجاملة أجاب عليها غاي: «إن لدينا الكثير مما نفخر به في وطننا ولكن من يستطيع منافسة التاريخ الرائع لليونان القديمة؟ وطبعاً امتلاك جبل الأولمبياد؟»

ضحك أليكسيس أوريستيس، قائلاً: «هذا صحيح.»

وإذ شعرت أوريسا أن عليها أن تقول شيئاً، قالت: «إن أبي مغرم باليونان. وقد علمني لغتكم منذ صغري.»

وكانت تتكلم باللغة اليونانية، فقال الضيف: «هذا رائع. من المدهش أنك تتكلمينها بطلاقة تامة.»

أجابت: «إنها لغة جميلة للغاية، وأنا أشعر بالزهو لاستطاعتي قراءة كتب أدبائكم الكبار.»

www.rewity.com

فبدا الفضول واضحاً على أليكسيس أوريستيس وانتقل يجلس بجانبها وأخذا يتحدثان معاً باللغة اليونانية.

كانت هي مسرورة لعدم فهم غاي ما كانا يتحدثان عنه إذ أنها لم تستطع أن تمتنع عن إخبار الضيف بأنها سبق لها السفر إلى اليونان ورأت كثيراً من الأماكن الجميلة هناك. ذلك أن هذا كان شيئاً لم تفعله بينيلوب.

ولكن أورسا فكرت في أن أوريستيس لو أخبر غاي فيما بعد أنها كانت في بلاده، لما ساوره الشك، وإنما سيعتقد أنها إذ تدعي ما أورسا كانت قامت به، إنما كانت تفعل ذلك عن ذكاء منها.

وما لبث غاي أن أخذ ضيفه إلى مكتبه، فتكهنت أورسا بأنه سيتحدث معه عن الأعمال.

وعندما وجدت نفسها مع اميليا، لمست صعوبة في التحدث إليها رغم أنها كانت تتكلم لغتها.

فسألتها: «حدثيني عن نفسك. ماذا تفعلين في بلدك؟»

أجابت: «إن أبي يريدني أن أتزوج رجلاً ذا أهمية إجتماعية، ولكن الرجال المهمين في بلادي هم عادة كبيرون في السن.»

ابتدأت أورسا تفهم الوضع.

فقد كان هذا هو سبب اختيار أليكسيسي أوريستيس لغاي ليكون صهراً له.

ولم تجرؤ على قول هذا لاميليا، ولكنها قالت عوضاً عن ذلك: «أظنك تحبين الصعود إلى الطابق العلوي لترتاحي قليلاً قبل العشاء.»

أجابت: «هذا يسرني، فإني أشعر بصداع من رحلة

القطار ومن طول الاستماع إلى أبي وهو يتحدث ويتحدث.»

سألتها أورسا: «يتحدث عن ماذا؟»

ساد صمت قصير، ثم أجابت اميليا قائلة: «كان يرشدني إلى ما يجب أن أقوله وما لا أقوله لغاي عندما أقابله. ولكن الآن، حيث أنه سيتزوجك، على أبي أن يتطلع إلى جهة أخرى بحثاً عن زوج لي.»

فنظرت أورسا إلى اميليا بدهشة.

«ولكن من المؤكد أن ليس عليك أن تتزوجي شخصاً لا تريدينه.»

قالت اميليا: «إن عليّ أن أتزوج من يختاره لي أبي.»

وكانت تتكلم بحزم.

رأت أورسا أن الفتاة تتقبل ما لا جدال فيه. فقالت بسرعة شاعرة بأنها ستخطىء إذا هي نطقت بأي شيء آخر: «فلنصعد إلى الطابق العلوي.»

لم يكن ثمة أثر لماري التي سبق وأخرجت الأمتعة من الحقيبة وعلقتها في الخزانة.

ولهذا، عادت فخرجت إلى الممرّ تفتش عن مكان اللايدي الأرملة.

ورأت خادمة تأتي نحوها مسرعة، فسألتها: «هل لك أن تخبريني أين اللايدي الأرملة؟»

فانحنت الخادمة احتراماً، وأجابت: «نعم، يا آنسة إن مكان سيادتها في الجهة المقابلة منا، ولكنني عندما ذهبت إليها منذ فترة، كانت تغط في نومها، فظننت أن من الخطأ ايقاظها.»

فقالت أورسا: «معك حق.» وأدركت أن هذا هو السبب في عدم نزول اللايدي إلى الطابق الأسفل.

وعادت إلى مكانها، حيث وجدت فيها بعض الكتب التي تسرها قراءتها.

واحد منها كان يتحدث عن تاريخ المنزل، ويتخلله الصور.

كان من الجمال بحيث جلست أورسا على الأريكة وأخذت تتصفحه.

وكان قد مضى عليها في القراءة حوالي النصف ساعة عندما أتى غاي وهو يقول: «كان عليّ أن أعلم أنني سأجدك هنا. لقد سار كل شيء على ما يرام.»

«ألم يعرب لك والد اميليا عن خيبة أمله؟»

قال: «إنه أكثر دبلوماسية من أن يفعل ذلك. إنه فقط هنأني على زواجي منك، ثم دخل في حديث العمل.»

«لقد أخبرتني ابنته بأن أباها يريد أن يزوجها من رجل ذي مركز هام، وأن لا خيار لها في الأمر.»

فقال: «يا للفتاة المسكينة.»

تابعت أورسا تقول: «قالت كذلك أن أباها أخذ يرشدها طوال الطريق في القطار إلى هنا كيف عليها أن تتصرف وماذا عليها أن تقول لك. وأظن أنها شعرت بارتياح كبير حين رأت أنها لم تعد بحاجة لأن تقول شيئاً.»

«كيف بإمكاني أن أشكرك ليس فقط لفكرتك تلك الرائعة، وإنما لتنفيذها بكل هذا الذكاء.»

قالت: «ولكن ما زال أمامنا أن نكون في غاية الحذر من أن نقع في أيّ خطأ.»

فقال: «هذا صحيح. إن أوريستيس بالغ الذكاء، ولكن بإمكانه أيضاً أن يكون بالغ القسوة إذا اكتشف أنه كان مخدوعاً.»

فقالت: «إذن، يجب أن لا نخطو خطوة خاطئة إلا بعد يغادر إلى لندن.»

سألها: «كيف يمكن أن تكوني بهذا الذكاء؟ لقد ترك تأثيراً كبيراً في نفس أوريستيس.»

فقالت: «إنه حظك الحسن فقط.»

قال: «عليّ أن أعود الآن، واستمر في التقرّب إل لمسايرته. لقد صعدت إلى هنا في الواقع لكي أرى إن كان جدتي ستنزل، ولكنني وجدتها ما زالت مرتاحة، فقل للخادمة ألا توقظها إلا عندما يحين وقت العشاء.»

فقالت: «هذا عين العقل.»

الفصل الخامس

هبطت أورسا السلم في الساعة السابعة من صباح اليوم التالي، شاعرة وكأنها تلميذة غائبة عن المدرسة دون عذر.

كانت واثقة من أن اللايدي الأرملة ما زالت مستغرقة في الراحة، وكذلك الضيفان اليونانيان.

لم تكن سهرة الأمس بالصعوبة التي كانت تخافها.

فقد بذلت جهدها في الحديث مع أليكسيس أوريستس.

وكان هو مسروراً بمعرفتها لليونان وبما بذلته من اهتمام بمركزه المرموق.

وكان من الأسهل أن يدور الحديث بلغته، وذلك لكي لا يفهم غاي حديثهما.

وجدت أن الضيف اليوناني ذا دراية واسعة بالتاريخ اليوناني القديم.

واكتشفت أيضاً أن لديه مجموعة من التحف اليونانية الأثرية تتمنى لو تراها.

وعندما ذهبوا للراحة، رافق غاي جدته إلى أسفل السلم. وحيث أن الضيفين لم يكونا قد لحقا بهم بعد، قال غاي لها: «لقد تصرفت بشكل ممتاز، وأنت تعرفين كم أنا شاكر لك.»

ولم تجد وقتاً ترد عليه بعد أن كان أوريستيس وابنته قد انضما إليهما.

رافقت أورسا اللايدي الأرملة إلى الطابق الأعلى، حيث كانت خادمتها بالانتظار، فحييتها متمنية لها ليلة سعيدة، ثم ذهبت.

وعندما دخلت، أدركت كم كانت متعبة ولكنها لم تكن من الخوف كما كانت قبل وصول الضيوف.

وسرعان ما استغرقت في الراحة وهي لا تفكر سوى في غاي.

والآن ها هي ذي تخرج إلى النزهة، لتجد جوادين في الانتظار، وكان غاي بجانب جواد عليه سرج جانبي.

وعندما اجتازا الجسر الذي يعلو البحيرة، وصلا إلى أرض مستوية.

كانت الأراضي رائعة الجمال، قالت أورسا وهي تجيل فيها النظر: «لا بد أنك تشعر بكثير من الفخر لامتلاكك كل هذا، ولكنني أعلم أنها مسؤولية كبرى.»

سألها: «ما الذي تعنيه بذلك.»

أجابت: «ليس كل هذه الأراضي هي من مسؤوليتك فحسب، ولكن الناس الذين يعيشون عليها هم أيضاً كذلك، وأنا واثقة من أنهم يتطلعون إليك كمرشد لهم وعون.»

كانت تقول ببساطة ما خطر لها، ومرت لحظة صمت قبل أن يجيبها قائلاً: «أتراك تلومينني حقاً لغيابي في الخارج تلك المدة الطويلة، بدلاً من أن أبقى للاهتمام برعيتي؟»

أجابت: «لم أكن أفكر في ذلك مطلقاً، وعلى أية حال، فهذا تحديد ممتاز لما يجب أن يكون عليه المالك.»

قال غاي: «اظنني أردت أن أرى العالم الخارجي أثناء

www.rewity.com/vb

فترة شبابي وذلك قبل أن تداهمني متاعب المسؤوليات.»

كان يتكلم بلهجة أدركت هي معها مبلغ ما كان يشعر به من تعاسة في طفولته، فقالت: «لم أكن ألومك في الحقيقة. وكل ما رأيته في تشارنوود هو في غاية الروعة، وكان يجب عليّ، في الواقع أن أهنئك.»

قال غاي بحزم: «هكذا تركها أبي، وهكذا أريدها أن تستمر. ولكنني أريدها كذلك أن تكون لي بيتاً حقيقياً.»

تذكرت أورسا، عند ذلك، ما كانت اللايدي الأرملة أخبرتها به عنه وكيف أن هذ ما كان ينقصه على الدوام. وكان هذا هو السبب في ابتهاجه عندما تزوج أبوه، فقالت له: «إنك طبعاً تريد بيتاً، وكذلك أولاد كثيرين يستمتعون ببيتك الرائع وحدائقك.»

«لقد ابتعدت بك التصورات، ولكنني أيضاً أحب أن أعلم أبنائي الرماية.»

فقالت: «إني واثقة من أن هذا ما ستفعله، وحسب ما قالته جدتك، هناك عدد من الفتيات اللواتي يقبلن أن تعرض عليهن مركز سيدة منزل تشارنوود.»

أجاب: «قد يكون في غاية الصعوبة إذا أنا تزوجت المرأة غير الملائمة.»

كان يتكلم بلهجة حادة وأثناء ذلك استدار في الاتجاه الذي قدما منه.

ثم أضاف يقول: «أظن أن علينا أن نعود.» فتبعته وقد تملكها التفكير من أن تكون قد أخطأت بشيء في ما قالته.

وعندما نفذا إلى الأرض الواسعة، أسرع غاي وكأنه

متلهف إلى العودة إلى البيت، وسألتها نفسها، ماذا تراني قلت؟ ماذا تراني.. فعلت؟

وعندما استعرضت حديثهما بكامله، خرجت بنتيجة هي أنه يحب امرأة لا يستطيع الزواج منها.

وعندما أصبحا على مسافة قريبة من البيت أبطأ غاي في السير، ثم سألها: «هل استمتعت بهذه النزهة؟»

أجابت: «لقد كانت جميلة للغاية. وأتمنى أن يكون لي الحظ في نزهة ثانية قبل أن أغادركم.»

فقال: «ليس ثمة ما يدعوك، وجدتي إلى السرعة في المغادرة، لقد أخبرني أوريستس ليلة أمس بأنه يريد أن يلحق أول قطار صباح الغد وذلك لكي يجد، وابنته، وقتاً لتناول الغداء قبل أن يتابعا السير إلى حيث موعده مع الملكة في وندسور.»

قالت: «أنا واثقة. حسب ما حدثني به في الأمس، من أنه سيحدث الملكة بنصيحتك الثمينة عن تحديث الاسطول اليوناني ووعدك له بالمساعدة في الاشراف على ذلك.»

أجاب غاي: «أرجو ذلك. ولكنني مدرك أن الفضل لك في أنه ليس عليّ، مقابل ذلك، أن أتخذ زوجة يونانية.»

حين وصلت إلى المنزل، قالت أورسا له: «أشكرك جداً على هذه النزهة الصباحية.»

وأسرعت أورسا إلى داخل المنزل دون أن تنتظره، قد فكرت في أن من الخطأ أن تجعل اللايدي الأرملة تعلم بأنها ذهبت في نزهة صباحية، ذلك أن عليها، هي أكثر من غيرها، أن تنتبه إلى أن هذا شيء لا ينبغي على بينيلوب أن تقوم له.

كانت بينيلوب، على الدوام، تكره الاستيقاظ باكراً. هذا عدا عن أنها لم تكن تحب النزهات، وعندما صعدت أورسا إلى الطابق العلوي، أخذت تحدث نفسها قائلة: «يجب أن أكون في منتهى الحذر.»

* * *

مر بقية النهار بنجاح تام، فقد اقترح غاي على ضيفيه أخذهما لجولة حول المنزل في ذلك الصباح.

وبعد ذلك تناولوا غداء مبكراً قبل أن يذهبوا في نزهة حيث قادهم إلى مناطق الجمال في أراضيه والتي لم تستطع أورسا بأي شكل مقارنتها بالمناظر الجبلية الفائقة الروعة التي يراها المرء في اليونان.

أخذهم إلى إحدى مزارعه حيث أبدى اليكسيس أوريستيس إعجابه الشديد بحداثة الأدوات الزراعية التي زودها غاي بها، وأراد أيضاً أن يعلم كم تباع المحاصيل الموسمية فيها، ورأت أورسا أن الضيف اليوناني كان يقيّم كل شيء بما ينتجه من نقود، فهو رجل أعمال قبل كل شيء.

وعندما عادوا إلى المنزل كانت اللايدي في انتظارهم في قاعة الجلوس، وكذلك بعض الشطائر في حالة ما إذا كانوا جائعين قبل العشاء.

والشخص الوحيد الذي لم يكن يبدو أن لديه ما يقوله، هو أميليا.

وهذا ما جعل أورسا تأخذ عنها فكرة هي أنها صبية بليدة الفهم. وتساءلت كيف كان يمكن لرجل مثل غاي أن يتزوج فتاة كهذه؟

وعندما جلست إلى اللايدي قبل العشاء، قالت لها هذه وكأنها قرأت أفكارها: «لاحظت أن اميليا لا تتحدث كثيراً، وأنا أشكرك من كل قلبي لتمكنك من انقاذ غاي من هذا الزواج.»

فقالت أورسا: «كنت أفكر فعلاً، في نفس الأمر، يجب عليه أن يجد فتاة أفضل حقاً.»

فقالت اللايدي: «واحدة مثلك، يا ابنتي بينيلوب. لقد فكرت اليوم فقط في مبلغ حسن حظ آرثر إذ يحظى بزوجة مثلك. لقد كنت ذكية مع السيد أوريستيس بحيث أشعر الآن بأنه لم يمتعض مطلقاً من افلات غاي من بين يديه.»

قالت أورسا: «أرجو أن يكون الأمر كذلك، وبالطبع، كان من حسن الحظ تماماً أن بإمكاني أن أتحدث إليه بلغته.»

فقالت اللايدي: «لقد دهشت حقاً، رغم أنني لم أستطع سماع ما كنتما تقولانه حيث أنكما كنتما في الطرف الآخر من الحجرة، لقد سمعت ضحكاته فقط وقد اختفت من صوته تلك النبرة القاسية التي بدت بعد وصوله ومعرفته بأن غاي له خطيبة.»

وأدركت أورسا، كما سبق لها ذلك من قبل، أن اللايدي بالنظر إلى فقدانها البصر، هي أكثر حساسية إزاء أصوات الناس ومشاعرهم من غيرها.

قالت بصوت مرتفع: «من المهم جداً أن يمدح السيد أوريستيس غاي أمام الملكة، وأنا واثقة من أن هذا ما سيحدث.»

فقالت اللايدي: «وأنا أشعر بنفس الشيء، وهذا كله بسببك، يا ابنتي.»

تركت أورسا اللايدي الأرملة في رعاية خادمتها، ثم صعدت إلى الطابق العلوي.

كانت تتمنى لو بإمكانها، بعد الرجوع إلى بيتها، أن تعود لرؤية اللايدي براكلي، ولكنها كانت تعلم استحالة هذا، كما أنه أمر لن تقبل به بينيلوب أبداً وخطر ببالها بشكل مفاجيء، أنها كذلك لن يعود بإمكانها أن ترى غاي، مرة أخرى، وانتبهت إلى انقباض مؤلم تملك قلبها.

وعندما حان موعد الراحة، قال أوريستيس إنه استمتع بهذه الضيافة إلى درجة بالغة: «حالما تتزوج، يا عزيزي غاي، يمكنك أن تأتي وزوجتك فتنزلا في ضيافتي. إنها ذات دراية واسعة بالمتاحف اليونانية الأثرية، ولدي تحف أثرية كثيرة ذات أهمية أريدها أن تراها.»

فحبست أورسا أنفاسهاوهي تراه يعني ضمناً أنها سبق وسافرت إلى اليونان. وعلى كل حال، لم يظهر على غاي أنه لاحظ شيئاً، وإنما قال فقط: «طبعاً، إن ذلك سيكون مبعث سرور لنا. وعلى كل حال، فإن عليّ أن أسافر إلى اليونان سواء عاجلاً أو آجلاً وذلك لكي أتشاور معك بالنسبة للبوارج.»

فقال السيد أوريستيس: «إني أتطلع إلى ذلك الوقت ببالغ السرور.»

ودعت أورسا أميليا وهي تقول: «أرجو أن أراك في الصباح قبل سفرك هذا إذا لم يغلبني النعاس.»

وعندما صعدت إلى الطابق العلوي مع اللايدي فكرت بارتياح في أن كل شيء قد انتهى. لم تكن هناك صعوبات، ولا مشاكل كما أن غاي قد انقذ من ورطته، وعندما تركتها

ماري، لم تطفىء المصباح بجانب سريرها وبدلاً من ذلك، أخذت تقرأ في الكتاب الذي كانت وجدته في المكتبة عن آل تشارنوود والمنزل.

كانت قد سبق وأنهت قراءة معظمه من قبل، ولكن ما زال منه عدد من الصفحات لم تكن تريد أن تقرأ فقط كل كلمة منه، ولكن أن تتذكرها كذلك.

الفصل السادس

عليها الآن ان تقنع اللايدي الأرملة بالعودة إلى منزل براكلي غداً.

فكرت في أنها ستخبرها بأن آرثر سيزعجه ألاّ يجدها هناك حين يعود من السفر.

وفي نفس الوقت، كانت منزعجة لفكرة ترك تشارنوود.

واخذت تحاول ان تتصور ما الذي ستفعله أو تقوله عندما ترى غاي مجدداً.

وبجهد بالغ، استطاعت السيطرة على نفسها فأغمضت عينيها.

فكرت في أنه سينساها... ولكنها هي لن تنساه أبداً... أبداً...

ولا بد ان النعاس تغلب عليها أخيراً، لأنها انتبهت فجأة إلى فتح الباب ودخول شخص إلى الغرفة.

تملكها الذهول وهي ترى امرأة تضع على عينيها نظارات سوداء.

وقبل ان تدرك انها لم تكن حالمة، قالت لها بصوت حاد: «استيقظي. استيقظي يا أورسا.»

«بينيلوب!»

فقالت بينيلوب: «نعم انا هي، والآن، اسرعي. عليك ان تغادري حالاً.»

فسألتها: «ولكن لماذا؟ ما الذي حدث؟»

اجابت بينيلوب بصوت منخفض: «ان آرثر في طريقه إلى البيت. وعندما لا يجدني في منزل براكلي، فهو سيأتي إلى هنا.»

فقالت أورسا: «ولكنني... لا افهم ما حدث.»

لم تستطع التفكير بوضوح، شاعرة وكأن رأسها محشو بالقطن.

فقالت لها بحدة: «لا تكوني غبية، كل ما عليك فعله هو ان ترتدي ثوبي، ثم تستقلي العربة التي تنتظرك امام الباب الرئيسي، لكي تأخذك إلى بيتك.»

لم تتكلم أورسا، بينما تابعت بينيلوب تقول: «لا استطيع ان اتصور لماذا جئت إلى هنا. وانا غاضبة منك جداً لهذا.»

فقالت أورسا: «لم استطع تجنب ذلك. لقد طلب غاي من جدته أن تساعده وانا أيضاً قد ساعدته.»

فسألتها بينيلوب: «ماذا تعنين بقولك انك ساعدته؟»

أجابت أورسا بتردد: «اخاف ان تستائي مني إذا اخبرتك بما... حدث.»

سألتها: «بما حدث؟»

تعذر على أورسا النطق لحظة، ثم قالت بتردد: «استقبل غاي... ضيفاً يونانياً بالغ الأهمية جاء... لزيارته... وكان يريده أن يتزوج... ابنته.»

فسألتها: «وما علاقة هذا بك؟»

«لكي أنقذه من... زوجة لا يريدها... وافقت على أن أتظاهر بأنني... أنا نفسي... ثم أخبر هو ضيفه اليوناني بأنني... مخطوبة له.»

فحدقت بينيلوب في أختها وكأنها لا تصدق ما تسمع.

تابعت أورسا قائلة: «وهكذا ترين أنني... هنا في تشارنوود، مفروض ان اكون الآنسة أورسا هولينغتون... وغاي فقط، وجدته، يظنان أنني... هي أنت.»

فقالت بغضب عنيف: «لم اسمع طيلة حياتي بقصة تشوش الذهن مثل هذه القصة. كيف سمحت لنفسك بأن تتورطي في شيء سخيف كهذا بينما المفروض انك انا.»

«لم يكن لدى اللايدي براكلي، فكرة عن أن غاي قادم لرؤيتها... وحيث انها... كانت تفكر في مصلحته... كان من الطبيعي ان تطلب مني... مساعدته.»

فقالت بينيلوب ببطء في محاولة لاستيعاب الموقف: «انت هنا إذن بصفتك انت نفسك.»

«نعم. هذا... صحيح. ولكن الضيف وابنته رحلا باكراً هذا الصباح... وهكذا لن أراهما... مرة ثانية.»

فقالت بينيلوب تسدد لها كلامها: «تعنين (أنني) لن أراهما، وحماتي لن يمكنها أن ترى الفارق بيننا.»

فسألتها أورسا: «ولكن... أفرضي ان غاي... سيدرك ذلك.»

بدت على شفتي بينيلوب ابتسامة خفيفة. وقالت: «لقد سمعت الكثير عن غاي تشارنوود وفي الواقع... انا أتمنى لقاءه.»

«ولكن... إفرضي انه ادرك انك لست... أنا.»

فقالت بينيلوب بلهجة واثقة: «لا تقلقي بشأن غاي. فأنا اعرف كيف أواجهه.»

ولما لم يعد لها ما تعمله، فقد ابتدأت ترتدي ملابس اختها.

وكانت بينيلوب قد ارتدت الثوب الذي كانت أورسا ترتديه. ثم ألقت نظرة على ساعة الحائط.

وفي نفس اللحظة، نظرت أورسا إلى الساعة هي أيضاً ورأت عقربي الساعة يشيران إلى السادسة.

كانت تعلم أنه لن يكون مستيقظاً الآن سوى بعض الخدم.

فلو انهم كانوا رأوا سيدة ترتدي نظارات سوداء، داخلة، فلن يدهشهم ان يروها، بعد ذلك، خارجة.

وكأنها تقريباً، كانت ألقت سؤالاً، قالت بينيلوب: «لقد أخبرت الخادم عند الباب أنني جئت لرؤيتك لأخبرك بشيء بالغ الأهمية ولا يحتمل الإرجاء، وان ليس ثمة حاجة لإزعاج البقية في المنزل.»

فقالت أورسا: «إنه تصرف ذكي منك.»

ردت عليها أختها بحدة: «ولكن افسادك لكل شيء لا يدل على ذكاء.»

وعندما اخذت تفتش عن حقيبة يدها، قالت بينيلوب: «أظن من الأفضل ان تأخذي حقيبتي. ففيها بعض النقود لأن عليك ان تمنحي خادم العربة اجرته.»

سألتها أورسا وقد تملكتها الخشية من ان يكشف السائق أمرها: «هل هو سائق الأسرة؟»

أجابت بينيلوب: «لا. كلا بالطبع.»

وشعرت أورسا عند ذلك بشيء من الارتياح. ولكنها في نفس الوقت لم تستطع إلا ان تسأل: «كيف علمت بأن آرثر في الطريق إلى منزل براكلي؟»

قالت بينيلوب: «لقد ارسل برقية إلى هناك، والخادمة

بدورها ابلغتني بالأمر في منزلي كما قالت لي بانكما هنا في تشارنوود، لهذا اتيت لأعود مع حماتي.»

وقبل أن تقول اختها شيئاً، عادت تقول: «انني... آسفة، يا بينيلوب... انني آسفة جداً جداً إذ جعلتك تستائين مني.»

قالت بينيلوب: «إن لديّ، لحسن الحظ، ذكاءً كافياً للتخلص من هذه الورطة. والآن، أرجوك، غادري المنزل ولا تتكلمي مع أحد إلى حين وصولك إلى بيتك.»

ولم تسأل أختها إذا كانت تريد رؤيتها مرة أخرى، لأنها كانت تعرف الجواب مسبقاً.

وعندما اتجهت نحو الباب، قالت بينيلوب: «أورسا، تصرفي بسرعة. لماذا ما زلت واقفة هناك؟ اذهبي إلى بيتك وابقي هناك وفي المستقبل إياك ان تتصرفي هكذا.»

فقالت أورسا مرة أخرى: «انا... انا آسفة، يا بينيلوب.»

قالت بينيلوب: «ما دمت أصبحت هنا الآن، فالسرور يتملكني لرؤية منزل تشارنوود.»

فتحت أورسا الباب دون أن تنطق بكلمة أخرى.

وفي الممر، كانت تسمع أصوات الخدم في الردهة.

وبصعوبة كبرى، أرغمت نفسها على هبوط السلم ببطء وشموخ.

وأسرع خادم كان يكنس السجادة، إلى فتح الباب لها.

ومن أسفل السلم، لمحت عربة مقفلة امام الباب، وقد جلس حوذي في مقعد القيادة وبجانبه خادم.

صعدت اليها، وما ان اغلق الباب، حتى انطلقت بهم الجياد.

وقبل ان يستديروا نحو الجسر الذي يعلو البحيرة، التفتت تلقي على المنزل نظرة أخيرة.

وتساءلت: أتراه سيدرك أن بينيلوب ليست أنا؟

وعندما خرجوا من البوابات الحديدية العالية، رفعت النظارات السوداء عن عينيها.

كانت تريد ان ترى، لآخر مرة، الأكواخ الجميلة المكسوة سطوحها بالقش، وحدائقها المزهرة وعندما خلفوا وراءهم السور الذي يحيط بأملاك غاي، علمت بأن التمثيلية قد انتهت.

لقد عاد الغموض يطويها، كما حدث لساندريلا، ولكن غاي لن يفكر فيها مرة ثانية.

• • •

كانت العربة تسرع في سيرها. ولهذا لم يستغرق منها الوصول وقتاً طويلاً كما كانت تتوقع.

وعندما انعطفت بها العربة في الطريق المؤدية إلى بيتها، شعرت أورسا وكأنها كانت غائبة عنه سنوات.

وأثار دهشتها ان كل شيء لا يزال كما تركته.

ذلك أن اشياء كثيرة حدثت في تلك الفترة القصيرة من الزمن التي ابتعدت فيها عن البيت.

وكانت تدرك أنها هي نفسها أيضاً، قد اصبحت فتاة مختلفة، عن تلك الفتاة التي ذهبت لتؤدي دوراً في تمثيلية اختها.

ولأن أباها كان قد علمها بأن تحلل دوماً افكارها ومشاعرها، شعرت الآن بأنها تغيرت.

ومهما حاولت، فلن يكون في إمكانها العودة إلى الوراء او نسيان ما حدث.

وأسرع داوسن إلى الباب يفتحه لدى سماعه صوت عجلات العربة.

قال: «ها قد عدت، يا آنسة أورسا. ما اشد سرورنا لرؤيتك. ان غيابك يترك وحشة في المنزل.»

فقالت: «شكراً يا داوسن.»

واستدارت تدس النقود التي كانت في حقيبة بينيلوب، في يد الخادم الذي فتح لها باب العربة التي سرعان ما ابتعد الحوذي بها.

بدت الدهشة على داوسن وسألها: «لماذا لم يتوقفا لتناول فنجان قهوة، يا آنسة أورسا؟»

أجابت: «لأنهما يريدان العودة بسرعة من حيث أقبلا، يا داوسن.»

فسألها: «وماذا حدث لأمتعتك؟»

أجابت: «ستصل فيما بعد.»

وفي الواقع، لم تكن هذه المرة الأولى التي تفكر فيها أورسا في امتعتها.

فقد أدركت ان بينيلوب قد وصلت من دون أي شيء، فهي لهذا ستحتاج إلى ما كانت اعطته لها من ملابس، وذلك لكي تأخذها معها.

هذا إلى أنه سيسرها عودة ماري لخدمتها.

قالت أورسا: «ساصعد إلى الطابق العلوي، يا داوسن.»

وكانت ابتدأت تصعد السلم، عندما قال لها داوسن: «لقد كدت أنسى يا آنسة أورسا.»

فتوقفت عن السير وهي تسأله: «ما هو ذاك؟»

«هناك رسالة لك وصلت منذ حوالي ساعة. واخبروني انها مستعجلة جداً.»

فقالت أورسا: «رسالة؟ ممن هي يا ترى؟»

ولأنها كانت تعلم أن صعود السلم صعب على داوسن بسبب ما يعانيه من الروماتيزم، فقد عادت تهبط السلم إلى حيث ناولها الرسالة التي كانت ملقاة على أحد المناضد في الردهة.

وبنظرة واحدة، أدركت أورسا انها من أبيها. فقالت: «انها من أبي يا داوسن. ما أجمل هذا. أرجو ان يكون عائداً بسرعة.»

قال: «وانا ارجو ذلك أيضاً. فانت تشعرين بالوحدة إذا لم يكن السيد معنا.»

وكانت أورسا قد عادت تصعد السلم، فلم تجب.

ثم جلست على كرسي، وفتحت الرسالة.

كانت قد فكرت، نظراً لوصول الرسالة بمثل هذه السرعة، أنه لا بد أرسلها عن طريق بريد السفارة الهولندية كما اعتاد أن يفعل غالباً.

وعندما أخرجت الرسالة من المغلف، تملكها شعور بالدفء وهي ترى خط أبيها المميز، واشعرتها رسالته بأنه ما يزال بجانبها.

ثم اخذت تقرأ ببطء، وعناية فائقة.

ابنتي العزيزة.

اعلم أن رسالتي هذه ستكون مفاجأة كبرى، ولكن في الوقت الذي تستلمينها فيه سأكون قد تزوجت. لقد كنت

أعرف تيريزا فان بيرجن منذ سنوات كثيرة، حيث انني كما لا بد تذكرين، كنت على اتصال دائم بزوجها عندما كنا نتبادل الكتب والوثائق.

كانت تيريزا، وهي انكليزية، اصغر كثيراً من زوجها، وعندما توفي منذ تسعة اشهر، رجوت أن تاتي إليّ يوماً ما.

وعندما حدث هذا، صار بإمكاني الكشف عن حبي لها. والآن، قد اجتمعنا معاً، وحيث انها مهتمة بعملي بنفس قدر اهتمامي به، فستكون حياتنا معاً مثمرة سعيدة للغاية.

انني واثق، يا ابنتي، بأنك ستحبين تيريزا عندما تقابلينها كما أحبها أنا، وقد حدثتها كثيراً عنك إلى ان قالت بأنها تشعر وكأنها سبق أن عرفتك وأحبتك من قبل.

أعلم انك ستتفهمين اننا سنمضي بعض الوقت قبل أن نعود إلى انكلترا.

اننا سنذهب أولاً إلى روما حيث هناك بعض الوثائق نريد ان نراها، ثم نقصد جنوب إيطاليا.

لقد وضعت عنوانين في اسفل هذه الرسالة يمكنك ان تراسليني اليهما، وارجو يا أحب الناس، ألاّ تظني أن سعادتنا معاً قد شارفت النهاية، ولكن كوني واثقة مثلي من أنها ستزداد بوجود تيريزا معنا.

انتبهي إلى نفسك، وأرسلي إليّ تمنياتك الطيبة لأنني في انتظارها.

وسأبقى دوماً والدك المحب الحنون، ماثيو هولينغتون.

قرأت أورسا الرسالة وكأنها لا تصدق ما تحتويه. لم

يخطر ببالها قط ان أباها قد يتزوج مرة ثانية امرأة أخرى بعد أمها.

فقد كانا دوماً أوفياء الواحد منهما للآخر دون حدود.

وبدا لها أن عدم بقائه وفياً لذكراها إنما هو انتهاك لتلك الذكرى.

ولكنها بعد ان فكرت في الأمر ملياً، حدثت نفسها بأنها تأخذ الأمر بشكل غير ناضج.

فأبوها كان مايزال شاباً نسبياً إذ هو لم يبلغ الخمسين بعد.

وكان دائماً مستغرقاً في عمله.

ولم يخطر لها قط انه ربما يحتاج إلى زوجة تقف إلى جانبه في السراء والضراء.

وحدثت نفسها متسائلة، كيف كنت من الغباء بحيث اظن ان كل ما يحتاجه أبي هو كتباً ووثائق لا يمكنها التنفس أو الكلام.!

إذا كان هو قد أحب تيريزا، فلا بد أن تيريزا قد احبته هي أيضاً بطبيعة الحال.

وعندما أخذت تفكر في الأمر، وصلت إلى نتيجة هي أن أباها أصغر سناً من فان بيرجن، زوج تيريزا الراحل بعشرة أو خمسة عشر عاماً.

وتذكرت ما كان أبوها يقوله من أنه كان استمتع بالنزول ضيفاً على آل بيرجن. مضيفاً ان صاحب المنزل كان حريصاً جداً على راحته.

وعادت أورسا تسأل نفسها، كيف كنت من الغباء بحيث لم أدرك، بعد وفاة أمي، ان أبي سيشعر بالوحدة؟

نهضت تسير نحو النافذة.

نظرت إلى الحديقة التي بدت لها متألقة بالأزهار.

لقد كانت سعيدة على الدوام في بيتها هذا، ولكنها تدرك الآن أن عليها ان تغادره.

وسألت نفسها مرة أخرى، أين يمكنني... الذهاب؟ وماذا عليّ أن... اصنع؟ وعادت الدموع إلى عينيها.

غيرت ثيابها وخرجت إلى الحديقة.

بدلاً من رؤية الأزهار، وسماع تغريد الطيور، اخذت تفكر فقط في تشارنوود.

لا بد أن الضيف وابنته قد رحلا الآن، كما ان بينيلوب نزلت إلى الطابق الأسفل.

وتساءلت عما إذا كان غاي قد أدرك الفارق بينهما على الفور.

الفصل السابع

ودّع غاي ضيفيه اليونانيين بعد الافطار وكان أليكسيس أوريستيس، وهو يودعه، في منتهى الرقة والكياسة وهو يخبر غاي كم يتطلع بشوق إلى استقباله هو وزوجته أورسا، ضيفين عنده في أثينا.

وما أن ابتعدت بهما العربة، حتى تنهد غاي بارتياح، ثم توجه نحو الاصطبل، حيث انطلق في نزهته الصباحية بمفرده.

ابتدأ السير مسرعاً، في البداية ثم أخذ بعد ذلك يبطىء في سيره.

وعندما وصل إلى البيت كان وقت الغداء قد حان.

وأسرع إليه كبير السائسين، والذي يبدو أنه كان يفتش عنه، أسرع يمسك بلجام الحصان وهو يسأله: «هل استمتعت بنزهتك يا سيدي؟»

أجاب غاي: «نعم، شكراً.»

ولكي يصرف ذهنه عن مشاكله الشخصية، قال: «بالمناسبة، يا غافين، أظن أن علينا أن نشتري طقم جياد آخر لعربة السفر ولكن بنفس جودة الطقم الذي عندنا.»

رأى تألق عيني كبير السائسين، فتابع قائلاً: «لقد كنت مسروراً بإدائها عندما سافرت بها إلى منزل براكلي، ولكن في الأسفار الطويلة، يتوجب علينا استبدالها.»

www.rewity.com/vb

أجاب غافين: «أنا أوافقك على ذلك، يا سيدي. ويا ليتنا نجد جياداً كستنائية اللون كالجياد التي كانت واقفة أمام الباب هذا الصباح.»

فسأله: «هل تقول إن جياداً كستنائية اللون كانت هنا؟»

«نعم، يا سيدي. وهي من أفخر الجياد التي رأيتها.»

وعندما لمس اهتمام غاي بحديثه، تابع يقول: «لقد سألت الحوذي عن مدى سرعتها، فأجاب بأن قوائمها لا تكاد تلامس الأرض.»

فابتسم غاي قائلاً: «من المؤسف أن ليس لدينا ما يماثلها.»

فقال غافين: «لقد بيعت منذ شهر فقط، وقد كانت صفقة جيدة بالنسبة لصاحبها.»

سأله: «لمن تعود الجياد؟»

«إنها للسيد فيرنون وينتر، يا سيدي.»

عاد يسأله: «وهل كانت العربة هنا هذا الصباح؟»

«نعم يا سيدي، وذلك حوالي السادسة.»

أراد غاي أن يلقي المزيد من الأسئلة، ولكنه رأى أن ذلك غير لائق به.

وأخذ يفكر مستغرباً هذا الأمر، بينما كان متجهاً نحو المنزل.

ما الذي يجعل فيرنون وينتر، والذي يعرفه هو جيداً يزوره في هذا الصباح الباكر، ولماذا لم يتلق هو خبراً مسبقاً بذلك؟

لقد كان فيرنون وينتر زميله في الدراسة في كلية إيتون،

ثم في اوكسفورد فيما بعد إلى أن طرد منها، بسبب اهماله لدراسته.

وحتى أثناء وجوده في الهند، فقد استمر يسمع بأخبار فيرنون وقبل عودته إلى الوطن مباشرة، سمع حديثاً عن مبارزة اشترك فيها فيرنون. وقد كان مكان ذلك في حديقة غرين بارك العامة.

فإذا كان فيرنون قد جاء إلى منزل تشارنوود فليس ذلك إذن، إلا ليرى بينيلوب.

ولكن لماذا في هذا الوقت المبكر؟

ولماذا لم يخبروه عن زيارة فيرنون؟

دخل غاي الردهة. وكان هناك رئيس الخدم ومعه خادمان.

قال له غاي وهو يناوله قبعته: «من كان في العمل من المستخدمين أول هذا الصباح؟»

أجاب رئيس الخدم: «إنه هنري، يا سيدي.» وأشار إلى أحد الخادمين.

سأله غاي: «فهمت أنه كان لدينا زائر هذا الصباح، وفي الواقع في الساعة السادسة كما أعتقد.»

أجاب هنري: «نعم، يا سيدي وكنت أنا قد ابتدأت العمل لتوّي.»

فسأله: «ومن كان الزائر؟»

«كانت سيدة، يا سيدي.»

«هل ذكرت اسمها؟»

«كلا يا سيدي. لقد قالت فقط إنها تريد أن ترى السيدة التي جاءت مع جدة سيادتك وكانت مستعجلة، ثم صعدت إلى الطابق العلوي.»

وفكر غاي لحظة قبل أن يسأله: «كم طال بها المقام هنا؟»

«من ربع إلى ثلث الساعة، يا سيدي.»

«ثم غادرت؟»

«نعم يا سيدي.»

«هل رأيت وجهها؟»

«لقد كانت تضع على عينيها نظارات سوداء وعلى وجهها وشاحاً، يا سيدي.»

«وهل كانت ما تزال تضعها على عينيها عندما غادرت؟»

«نعم يا سيدي.»

فلم يقل غاي أكثر من ذلك. وأخذ يفكر وهو يبتعد بأنه قد عرف ما حدث.

لقد انبثق في ذهنه الحل لذلك اللغز، كما يلتمع البرق في الظلام.

دخل قاعة الجلوس حيث رأى في آخرها جدته جالسة في مقعدها المفضل.

وعلى المقعد المقابل لها، كانت هناك امرأة، أدارت رأسها إليه وهو يتجه ناحيتهما.

وأدرك على الفور أنه يرى، لأول مرة، بينيلوب براكلي.

ألقى تحية الصباح على جدته، ثم قال للمرأة الجالسة قبالتها: «صباح الخير، لا شك أنك ارتحت جيداً.»

أجابت بينيلوب: «طبعاً، فكل مكان مريح مترف في منزلك الرائع.»

كان صوت بينيلوب مشابهاً لصوت أختها إلى حد كبير. وأدرك الآن كيف خُدعت جدته.

ألقى نظرة على ساعة الحائط ليتأكد مما إذا كان وقت الغداء قد حان.

وفي هذه اللحظة، إذا بالباب يفتح، وصوت رئيس الخدم يعلن قائلاً: «السيد براكلي، يا سيدي.»

دخل آرثر براكلي بينما قالت بينيلوب بابتهاج وهي تركض نحوه: «آرثر، آرثر ها قد عدت. ما أروع هذا.»

ورأى غاي أن ذلك كان مجرد تمثيل، إنما تمثيل جيد تماماً.

وكان آرثر يقول: «لقد ذهبت إلى المنزل، فوجدتكما قد جئتما إلى هنا، ولا أدري السبب.»

فقالت الجدة: «كان ذلك ذنبي أنا. وما أجمل أن أسمع صوتك، يا عزيزي آرثر.»

سألها براكلي: «كيف حالك يا أمي؟»

قالت له بينيلوب: «لا يمكنني أن أصف لك مقدار الوحدة التي شعرت بها في غيابك.»

فقال بشكل يخلو من الظرف: «من الصعب عليّ تصديق كلامك هذا.»

وكان أثناء كلامه ينظر إلى غاي الذي قال له: «سنخبرك بكل شيء أثناء تناول الغداء.»

أخرج آرثر براكلي ساعة ذهبية من جيبه نظر إليها وهو يقول: «يجب أن تكون وجبة سريعة إذ عليّ الذهاب إلى لندن في أسرع وقت ممكن، وسآخذ بينيلوب معي.»

فسارعت بينيلوب بشوق: «سأحزم أمتعتي حالاً. وما أروع أن أعود إلى لندن.»

ووجد غاي صعوبة في منع نفسه من التصفيق لنبرة الاخلاص الصادقة في صوتها.

قال آرثر براكلي: «سأعطي الأوامر لكي لا تتأخر أكثر مما يستلزم الأمر.»

ثم غادر.

وبعد ذلك بدقائق، أعلن رئيس الخدم أن الغداء جاهز.

ولم تكن الساعة قد بلغت الثانية بعد، عندما بفضل إدارة غاي الممتازة، تحركت العربة بآرثر براكلي وزوجته مغادرين إلى لندن.

وما أن ابتعد عن الأنظار، حتى أقبلت من الإصطبل عربة غاي.

وكان غاي في قاعة الجلوس مع جدته. فقال لها: «ثمة شيء أريد أن أسألك عنه، يا جدتي.»

فسألته: «ما هو؟»

«أين يسكن ماثيو هولينغتون؟»

ارتسمت ابتسامة على فم اللايدي وهي تجيبه قائلة: «في قرية صغيرة تدعى ليتي غرين. وهي ليست بعيدة من هنا إذا أنت ذهبت مباشرة وليس في الطريق الذي أقبلنا منه من منزل براكلي.»

فقال:

«شكراً لك.»

وكان موشكاً على الخروج، عندما سألته: «أظنك ذاهب لترى أورسا؟»

سألها: «إذن، فقد كنت تعلمين؟»

أجابت الجدة: «لقد داخلني الشك منذ البداية. ثم عندما

وصلت بينيلوب هذا الصباح، تأكدت من ذلك تماماً.»

وإذ لم يقل غاي شيئاً، تابعت تقول: «إذا شئت الصدق، بينيلوب لم تعجبني منذ البداية، قط. فقد كنت دوماً أفكر في أنها قد تكون جميلة، من الخارج، وهذا طبعاً ما لم يكن في استطاعتي رؤيته، ولكن جمالها غير عميق. إذ كنت واثقة من أنها سطحية تماماً.»

«وماذا عن أورسا؟»

ابتسمت اللايدي: «إنها مختلفة جداً. إن لها شخصية بالغة الحلاوة والذكاء شعرت بها من لحظة وصولها.»

رق صوتها وهي تتابع: «عندما سمعتها تتحدث باللغة اليونانية مع ضيفك، وتقرأ لي شعراً يونانياً، ليس فقط بصوتها وإنما من كل قلبها، أدركت أنها الفتاة الحساسة الذكية كما يجب أن تكون.»

«شكراً، يا جدتي. أرجوك أن تمكثي هنا بقدر ما تريدين، وأنا واثق من أن كل شخص سيعتني بك.»

أجابت اللايدي: «إنني مسرورة بوجودي هنا. وعند عودتك أحضر معك أورسا.»

ولكن غاي غادر الغرفة دون أن يجيب. أسندت اللايدي الأرملة ظهرها إلى الخلف وقد ارتسمت على وجهها ابتسامة، وهي تتمنى أن يتحقق لها ما تريد.

* * *

أسرع غاي بعربته، كما لم يسرع قط من قبل. كان يتذكر النواحي الريفية هنا جيداً، وهكذا لم يجد صعوبة في العثور على قرية ليتي غرين.

وأول شخص سأله، عند مدخل القرية، أشار له إلى حيث يسكن ماثيو هولينغتون.

وما أن حانت الساعة الرابعة، حتى كان غاي أمام البيت حيث ناول سائسه اللجام وهو ينزل متجهاً إلى الباب الأمامي. كان مفتوحاً، ودون أن يقرع الجرس، دلف إلى الداخل.

قادته رجلاه إلى آخر الممر ليفتح باباً هناك. وعندما دخل، رأى الجدران مبطنة بالكتب. وفكر في أن هذا المكان هو الأكثر احتمالاً بأن يجد فيه أورسا.

ولم يكن مخطئاً رغم أنه، للوهلة الأولى، رأى الغرفة خالية.

ثم رآها.

«لماذا... لماذا أنت هنا وكيف عثرت عليّ؟»

سألها: «وكيف بإمكانك أن ترحلي دون علمي؟ هل ظننت حقاً أنني سأتركك تذهبين من حياتي؟»

قالت: «ولكن بينيلوب...»

فقال: «لقد عادت أختك إلى لندن مع زوجها. والآن، لم يعد هناك حاجة إلى المزيد من الادعاء أو الكذب.»

«أنا... أنا... آسفة. كنت مدعية... في البداية... لكي... لكي أساعد بينيلوب.»

فأكمل بقوله: «وبعد ذلك لكي تساعديني والآن يمكننا أن نعود إلى حقيقتنا. كل ما أريد أن أعرفه، هو متى ستتزوجيني؟»

«أتزوجك؟ ولكن كيف يمكن ذلك... بعد أن ادعيت أنني بينيلوب؟ إنها ستغضب جداً.»

فقال: «أنا لا تهمني مشاعر أختك. أظن أننا أثناء كل ما حدث من فوضى وادعاء، قد وجدنا ما هو أهم من كل شيء آخر.»

«ماذا ستقول جدتك؟»

أجاب غاي: «إن جدتي سيسرّها ذلك. إنها هي التي أخبرتني أين تسكنين، كما أنها كانت تعلم بأنك لست بينيلوب منذ البداية.»

فسألته: «وكيف أمكنها... أن تعلم ذلك؟»

أجاب: «لأنها أحست بأنك مختلفة عن أختك.»

ثم سألها بصوت مختلف: «هل لديك أصدقاء؟»

اجابت: «مطلقاً... لشدّ ما كان شعوري بالوحدة عندما عدت إلى البيت.»

فقال معترفاً: «لقد كنت متحيّراً بشأنك فعلاً ولكن، لم قلت إنك شعرت بالوحدة عندما عدت إلى البيت؟»

ترددت أورسا لحظة، ثم ناولته رسالة أبيها، فقرأها غاي ثم قال معلقاً عليها: «حسناً، إن هذا يجعل الأمور، بالنسبة إلينا، أكثر سهولة متى ستتزوجيني؟»

«هل طلبت مني... حقاً أن... أتزوجك؟»

كان ذلك يبدو لها في منتهى الروعة، ولكنها ترددت في نفس الوقت.

فسألها غاي: «ما الذي يقلقك؟ إننا سنعيش معاً وسنكون من السعادة بحيث ندهش الجميع.»

سألته: «وما الذي يجعلك... واثقاً من ذلك؟»

فقال: «سأخبرك بالضبط. إنني أطلب منك الزواج، وكذلك أطلب منك أن تكوني شيئاً آخر في حياتي. شيئاً لا يمكن لامرأة أخرى أن تكونه.»

«وما هو ذاك؟»

أجاب: «أظن الكلمة المناسبة لذلك هو شريكتي.»

فقالت: «شريكتك؟ لا أفهم.»

قال: «دعيني أوضح لك ما أقول. عندما كنت تدعين شخصية أختك، كنت من الذكاء والدبلوماسية بحيث حدثت نفسي بأنك نفس نوع المرأة التي أريدها في حياتي لتساعدني في كل أعمالي.»

ضحك وهو يتابع قائلاً: «يجب أن أعترف بأنني لم أفكر من قبل في اتخاذ موظفة ولكنني كنت غالباً ما أتمنى اتخاذ من يساعدني ومن أستطيع أن أناقش الأمور معه وأنا واثق من أن أسراري ستكون في أمان تام.»

تمتمت: «ما زلت لا أفهم.»

أجاب: «إنك، كما سبق وقلت، كنت ذكية مع أوريستيس وهو يريدك أن تأتي معي إلى اليونان، وأنا واثق تماماً من أنه في أعماقه، يشعر بأنك ستكونين ذات نفع كبير لما أقوم به بالنسبة لبوارجهم.»

فقالت: «لا يمكن أن... تعني ذلك.»

أجاب: «بل أعنيه. عند ذلك أخذت أتحدث معك عن أشياء كثيرة فأدهشتني بأسئلتك الذكية وكذلك معلوماتك عن الشؤون الأجنبية. مما لم أكن أتوقع أن أجده في أختك.»

فقالت: «كيف كان بإمكاني أن أخبرك بأنني كنت سافرت مع أبي إلى كثير من البلدان؟»

قال غاي: «لديّ شعور بأنك تتكلمين عدداً كبيراً من اللغات الأجنبية.»

«هذا صحيح.»

«وهذا أمر آخر أريدك أن تساعديني فيه، إن فرنسيتي جيدة، أما ايطاليتي فمتوسطة، وهذا كل شيء.»

فقالت: «إنك تعلم أنني سأبذل جهدي في مساعدتك.»

«وهذا ما ستقومين به. إن على شريكتي، والتي هي أيضاً زوجتي، أن تقوم بدورها في أعمالي بالنسبة إلى اليونان، وأمكنة أخرى من العالم.»

«إنك الآن تخيفني. كيف أستطيع القيام بكل هذه الأمور؟»

أجاب: «بكل سهولة. وسأكون سنداً لك في كل ذلك.»

قالت: «عدني... بأنك تقول الحقيقة... وأنك لا تقول ذلك لأنك... تظن أن هذا... يسعدني.»

«أنا أعني كل كلمة مما أقول، وأنا أريد الزواج منك. لقد سبق وأرشدتني إلى أشياء عظيمة سأقوم بها في المستقبل. فإذا لم تكوني موجودة لتدفعي أعمالي إلى الأمام، فأنا قد أفشل بسهولة.»

قالت: «ها أنك الآن متواضع جداً. أنت تعلم أنك... لامع الذكاء، ولديّ شعور بأنك لا تفشل أبداً في أي عمل تقوم به.»

«هناك شيء واحد لن أفشل فيه، وهو الزواج منك، والآن أخبريني متى ستتزوجينني؟»

أشاحت بوجهها، وهي تقول: «إنك لا... تعرف عني... إلا القليل. الإدعاء فقط...»

فقال: «لا يمكننا تضييع أي وقت.»

فقالت: «ليس هناك، في الحقيقة، سبب... للإسراع.»

فقال: «بل هناك سبب وهو أنني لن أدعك بمفردك في

هذا البيت حيث أن أباك غائب ولفترة طويلة. ولهذا ساعيدك معي إلى تشارنوود وكلما أسرعنا في الزواج كان ذلك أسهل.»

سألته مستفهمة: «أسهل؟»

فقال: «أسهل بكل تأكيد، بالنسبة إليّ، من البقاء وحيداً بينما أعلم أن عليّ أن أضع في إصبعك خاتم الزواج ونبقى معاً دوماً.»

قالت: «أفرض أنك عندما تتزوجني... تجد أن ليس بإمكاني أن أفعل كل شيء تريده فترى أنك قد تسرعت في اتخاذ قرارك هذا.»

قال: «لقد اتخذت قراري هذا منذ وقت طويل، كما يبدو لي، رغم أنه ليس طويلاً بحساب الساعات والأيام. وبما أنك نادرة، والمرأة الوحيدة في مجتمعي التي تناسبني، فأنا لن أدع نفسي أخسرك. إن عقلينا متماثلان ذكاء وتفكيراً، وكل ما علينا القيام به الآن هو أن نتزوج دون أن نسبب أي تعليقات.»

تمتمت تقول: «لا بد أن الخدم في تشارنوود... قد أدركوا أن بينيلوب قد احتلت مكاني.»

فقال: «إن كبار السن بين الخدم سيعرفون ذلك، ولكن بما أنهم في خدمة الأسرة منذ وقت طويل، فهم لن يحدثوا أي انسان بهذا الأمر. فقد جئت بصفتك أورسا، وستعودين بصفتك أورسا. وأنا واثق من أنهم سيستقبلونك زوجة لي، وكذلك أهل بلدي وأقاربي عندما يعلمون بزواجي.»

سألته: «هل لديك أقارب كثيرون؟»

أجاب: «أجل.»

فلم تجب، وبعد لحظة عاد يقول: «حسناً، لقد استقر الأمر إذن، وأنا سأرسل سكرتيري غداً إلى لندن ليحصل على وثيقة الزواج. وسيكون زواجنا في المنزل وبحضور جدتي.»

«هذا هو نوع العرس الذي أريده. ولكنني واثقة من أن أصدقاءك سيخيب أملهم وسيتوقعون منك أن تقيم حفلة استقبال لمئات من الناس الذين عليك أن تصافحهم.»

فقال: «هذا ما كنت أخاف منه على الدوام. إذا كان ثمة ما يبعث الضجر في نفسي، فهو الناس الذين لا ينفكون عن الحديث عن العرس قبل حدوثه، ويتجادلون في أيّ من أفراد الأسرة الأهم.»

قالت: «إنك، على الأقل لن يكون عليك أن تشغل بالك بهذا الأمر.»

أجاب: «إن الشيء الوحيد الذي أريده، هو أن تتذكري عرسك كأحد أسعد المناسبات في حياتك.»

«كل هذا يبدو أروع من أن يكون حقيقياً.»

فقال: «كل شيء سيكون بالغ الروعة، وسيكون يوماً نتذكره على الدوام.»

سكت برهة، ثم عاد يقول: «هيا أحضري حقيبتك لكي نعود إلى تشارنوود.»

دهش وهو يراها لا تتحرك على الفور، وإنما تقول مترددة: «إن لديّ... طلباً.»

فسألها: «وما هو؟»

«تقول إنك تريد الزواج... على الفور... ولكن هل لك...

من فضلك، أن تمنحني بعض الوقت لكي أشتري فقط بعض الملابس الجديدة؟ إن ما كنت أرتديه حتى الآن، هي ما كانت أعارتني إياه بينيلوب. وعندما عادت أعطتني فقط الثوب الذي كانت تلبسه لأرحل به. وكل ما كنت أحضرته إلى تشارنوود من ملابس تركته خلفي.»

قال: «سيكون لك أروع الملابس وأجملها وذلك من أفخر المتاجر في شارع بوند ستريت في لندن.»

سألته: «هل سنذهب إلى لندن؟»

أجاب: «كلا، أبداً ولكنهم سيرسلون أجمل الأثواب التي لديهم إلينا لنختار منها، واتركي ذلك لي.»

«لا أصدق هذا. ولكن السيد أوريستيس سيتملكه الزهو حتماً إذا نحن أخبرناه ما ننوي القيام به.»

فقال: «سأجعل السيد أوريستيس يقتصر في حديثه معك على البوارج والتحسينات التي سندخلها عليها.»

وعندما ضحكت قال: «إنني جاد في كلامي، وأنا اؤكد لك أنني سأكون زوجاً غيوراً جداً.»

وهذا ما أريدك أن تعتقدي به دوماً، والآن بعد أن أنهينا هذه المشكلة، هل هناك شيء آخر؟»

أجابت: «كلا، ما عدا أنني أجد من الصعب عليّ أن أصدق حقاً ما يحدث.»

«علينا أن نكون واقعيين وعاقلين بالنسبة لهذا. إنني واثق من أن من الخطأ البالغ أن ندع أحداً يعرف بزواجنا قبل أن نغادر انكلترا في طريقنا الى بلاد البحر المتوسط.»

فسألته: «هل سنذهب... مباشرة الى اليونان؟»

«انني اخطط في ذهني لشيء خاص تماماً والذي اظنه سيسعدك، ولكننا سنتحدث عنه فيما بعد. والآن اريد ان اعود بك الى البيت حيث جدتي بانتظارك.»

الفصل الثامن

عندما صعدت أورسا لتحضر حقيبتها، نظر غاي إلى الكتب العائدة لأبيها وهو يفكر في أنه إذا استطاعت امرأة أن تتفهمها، فأكثر مشكلات العمل اليومي سيكون سهلاً.

وحدث نفسه قائلاً، إنها فريدة من نوعها. إني أعلم أن حبي لها سيغير مجرى حياتي.

ولكنه لم يغفل حقيقة أن ما كان قام به في الهند واليونان، كان عملاً باهراً حقاً.

كان يعلم منذ كان في المدرسة، ثم الجامعة بعد ذلك، أنه كان أذكى من أكثر زملائه.

وهو يدرك الآن أن أورسا ستساعده ما يجعله ينجز أكثر مما كان يتوقع حتى في أقصى طموحاته.

وعندما عادت أورسا، ذهبت أولاً إلى المطبخ وأخبرت الزوجين المسنين بأنها ذاهبة إلى منزل تشارنوود.

فقالا لها: «هذا سيكون حسناً بالنسبة إليك يا آنسة أورسا.»

كما أنها أخبرتهما بزواج أبيها.

وكانت دهشتهما بالغة.

ولكن لم يبد عليهما الحزن لمجيء مديرة منزل جديدة، كما كانت تتوقع.

أخيراً قالت: «سيعود أبي في وقت ما. وأنا كذلك. وأنا

أعلم أنكما ستهتمان بكل شيء في المنزل لأجلنا وسأرسل إليكما نقوداً كل أسبوع.»

فقال الخادم: «يبدو وكأنك مسافرة إلى خارج البلاد، يا آنسة.»

أجابت: «ربما أفعل ذلك. فإذا احتجتما إلى شيء، أو إذا حصل أي شيء فأخبرا عمدة البلدة. وأنتما تعلمان أنه سيساعدكما قدر إمكانه.»

فقالا: «لا شيء سيحصل ما دمنا نحن هنا.»

وبعد ذلك بدقائق، ابتعدت بهما العربة، بينما وقف الخادمان يلوحان لها بأيديهما وقد بدت عليهما السعادة.

ولم يتبادلا من الحديث إلا قليلاً نظراً للسرعة الفائقة التي كان يسوق بها العربة.

وأخيراً، لاح لهما منزل تشارنوود.

سألت نفسها والعربة تسير بهما، أمن الممكن حقاً أنني سأتزوج؟

بقي غاي صامتاً إلى أن وقفت العربة أمام الباب الأمامي.

عند ذلك قال: «مرحباً بك في بيتك.»

ثم فتح خادم باب العربة، بينما هرول نحوهما السائسون من الاصطبل.

نزلا من العربة ليصعدا الدرجات نحو الباب فوق السجادة الحمراء التي فرشت لهما.

وسأل غاي رئيس الخدم الذي كان في انتظارهما: «هل اللايدي في الطابق الأسفل؟»

«نعم. يا سيدي. إنها في قاعة الجلوس.»

www.rewity.com/vb

فدخل غاي ومعه أورسا.

وكما توقعت أورسا، كانت اللايدي تجلس بجانب النافذة.

لم يعلن وصولهما لها أحد، وعندما وصلا إلى منتصف القاعة، قالت اللايدي: «أهذا أنت يا غاي؟»

«نعم يا جدتي وقد أحضرت أورسا معي.»

نهضت اللايدي مادة ذراعيها: «ما أعظم سروري.ما أعظمه.»

فقبل غاي جبينها وكذلك فعلت أورسا.

سألت اللايدي: «هل لديكما ما تخبراني به؟»

أجاب غاي: «إننا سنتزوج في أسرع وقت ممكن، يا جدتي.»

«هذا ما كنت أتمناه، فأنا أعلم أن أورسا هي الزوجة المناسبة لك.»

اغرورقت عينا أورسا بالدموع وهي تراها تتكلم بكل ذلك الاخلاص.

وقالت: «لم أكن أعلم عندما جئت إلى هنا، أن هذا من الممكن أن... يحدث.»

فقالت اللايدي: «أعلم ذلك يا ابنتي. ولكن، سبق وقلت لي، لدى الكفيف قوة في الادراك لا يملكها، المبصر. فقد أدركت منذ اللحظة التي قدمت فيها إلينا مدعية أنك أختك، بأنك مختلفة جداً عنها.»

وابتسمت ثم قالت: «ثم ابتدأت أحبك. وفكرت في أنك ربما هي الفتاة التي شاءت الظروف أن تأتي إلى هنا لتكون زوجة لحفيدي.»

فقال غاي: «لقد كنت على صواب تماماً، يا جدتي. والآن عليك أن تساعدينا في التخطيط لحفلة الزفاف بحيث لا يكون هناك كلام ولا ثرثرة، ولا حاجة لأن يعلم أحد عن هذا الأمر حتى نكون في طريقنا إلى اليونان.»

فابتسمت قائلة: «هذا ليس صعباً بالنسبة إلى ثلاثة عقول متماثلة.»

عند تناول العشاء، كان غاي يضحكهما بقصصه التي أخذ يرويها.

وأقنع أورسا بأن تتحدث عن مختلف البلدان التي استمتعت بها مع مختلف القبائل في أفريقيا، والأجزاء الأخرى من الشرق.

وعندما صعدت اللايدي أخيراً لترتاح، تأخرت أورسا عدة دقائق في غرفة الجلوس.

سألها غاي: «هل أنت سعيدة؟»

أجابت: «إنني من فرط السعادة بحيث لا أستطيع وصف ذلك... بالكلمات.»

وعندما ذهب غاي ليرتاح أخذ يفكر.

كيف يقيم لأورسا عرساً من الجمال بحيث يبقى في ذاكرتهما، هما الاثنين طوال الحياة.

كل يوم مر على أورسا، أشبه بحكاية. وبعد أن استشار غاي جدته، قال: «سأرسل شخصاً إلى أحسن المتاجر في لندن.»

وفي اليوم التالي، وصل إلى القصر ما رأته أورسا جبلاً من الملابس.

قرر غاي أن الزواج سيكون في الساعة العاشرة وهو وقت غير مبكر بالنسبة إلى جدته.

وكان قد اختار لأورسا ثوباً أبيض.

وقد منحها غاي أكليلاً من الجواهر كان لأمه من قبل، وذلك لتضعه فوق النقاب.

قال لها: «إنه شيء تمنيت دوماً أن تضعه عروسي في حفلة زفافنا. والآن، سيكون لك خاتم خطوبتك الذي كان عليّ أن أعطيك إياه من قبل.»

قال لها: «إنني أعلم بأن هذا سيجلب لنا الحظ، نحن الاثنين. والحظ بالنسبة إلينا، أنا وأنت، يعني الزواج والسعادة الدائمة.»

«ما أجمله. شكراً... شكراً.»

ثم ناولها باقة من أزهار الأوركيد لتحملها.

وسارا هابطين سلماً جانبياً لكي لا يراهما الخدم في الردهة.

وكان ذلك السلم يقودهما مباشرة إلى قاعة كبيرة خلف المنزل.

كانت الأزهار البيضاء تملأ المكان. وكان رجل الدين في انتظار وصولهما. كما كانت اللايدي براكلي جالسة في انتظارهما.

وعندما انتهت مراسم الزواج، قال لها: «سنرحل في أقرب وقت ممكن، يا زوجتي.»

ثم تركها وذهب.

ارتدت ثوب سفر فوقه معطف.

وضعت على رأسها قبعة صغيرة.

وما زالت لم تعرف بعد إلى أين هما ذاهبان. وعندما نزلت وجدته في انتظارها.

قالت لها اللايدي: «سأفتقدكما، وعندما تعودان أرجو أن تطلبا مني البقاء هنا، إلا إذا كنتما تريدان المكوث معي.»

فقال غاي: «سنفعل الأمرين. وسنكتب إليك يا جدتي، ويجب أن تكلفي أحداً ليكتب إلينا باسمك وتخبرينا عن أحوالك.»

فوعدتهم الجدة بأنها ستفعل ذلك.

ثم ودعت أورسا قائلة: «ليس في إمكاني أن أصف لك مقدار سعادتي يا عزيزتي لكونك أصبحت فرداً في الأسرة، ولعلمي بأن حفيدي قد وجد أخيراً السعادة الحقيقية.»

فقالت: «أشكرك لكلامك الحسن هذا.»

فقالت اللايدي: «لا تنسي هذا يا ابنتي.»

فعادت أورسا تقول: «سأمنحه السعادة، الآن ودائماً.»

ونزلت خلف غاي الذي ساعدها في الصعود إلى العربة.

وشرعا في السير ليس معهما سوى سائس جلس في المقعد الخلفي.

وانطلقت بهم العربة بأقصى سرعة.

فقط، عندما توقفوا لتناول الغداء، قالت أورسا: «إنك تعلم بأنني أكاد أموت فضولاً لمعرفة وجهة سيرنا.»

فسألها: «ألم تدركي بعد؟»

«كلا.»

قال: «حسناً، إن مركبي في مرفأ دوفر.»

«هل سنسافر في مركب؟ كم أحب هذا. عندما كنا نسافر أنا وأبي إلى أماكن عديدة في سفينة، كنا دوماً نتمنى لو كان لدينا مركب خاص بنا.»

فقال غاي: «حسناً، هذا ما أصبح لديك الآن. لقد غيرت اسمه إلى اسم عروس البحر.»

وكانت أورسا تعلم أن هذا معنى اسمها في اللغة اليونانية.

وملأها التأثير لتغيير اسم المركب إلى اسمها. وكان عروس البحر مفاجأة حقاً.

فقد كان أكبر كثيراً مما كانت أورسا تتوقع وعلمت بأن غاي قد أمر بصنعه بطراز مبتكر وذلك لكي يستطيع أن يختبر عليه ابتكاراته الجديدة التي وضعها للبوارج.

وكانا قد تناولا العشاء في منزل خارج دوفر يملكه غاي. وكان ينزل فيه أحياناً عندما يكون ذاهباً في رحلة طويلة تبدأ في الصباح الباكر.

كما كان ينزل فيه في أوقات متفرقة، عندما كان يعود إلى انكلترا ويكون الوقت متأخراً لمتابعة الطريق إلى بلده.

وكان لا يعدو أن يكون منزلاً صغيراً، ولكنه مؤثث بشكل جميل تماماً.

وسر الخدم لوصول سيدهم، وأعدوا له طعاماً شهياً.

وكانت قاعة الطعام مزينة بالأزهار. وعندما صعدا إلى متن المركب، وجدت أورسا أن القمرة الرئيسية قد امتلأت بالورود والأزهار المختلفة من زنابق وأوركيد وغيرها من الأزهار البيضاء.

وما ان استقر بهما المقام على اليخت، حتى انطلق هذا في رحلته.

* * *

بسط غاي خططه على المنضدة وهو يقول: «هذا ما

علينا أن نقدمه. وهو يتعلق بك لأنك تتكلمين اليونانية بشكل أفضل كثيراً مني وذلك لكي توضحي بالضبط تأثير ذلك على سفننا.»

فقالت: «سأفعل ذلك. وأرجو أن يبتهج بما ابتكرت لأجله.»

قال: «بل ما ابتكرناه معاً. فأنت شريكة في هذا الأمر، يا زوجتي، وشريكة بالغة الاهمية.»

«أظنك تجاملني. ولكنني أحب منك مثل هذا الكلام. هذا بينما أحاول أن أفهم بناء السفينة البالغ التعقيد.»

قال: «أعلم ذلك. وحتى الآن، كنت غاية في الذكاء. إن أوريستيس لم يسكت عن القول كما أنت ذكية.»

كانت تعلم أنهما، منذ وصولهما إلى أثينا، كانا ماهرين جداً في جعل اليونانيين يستحسنون، أكثر من السابق، ابتكارات غاي. والتي كانت تجعل من سفنهم سفناً حديثة تماماً.

وفي الواقع، كان ذلك يجعلها في المقدمة من جميع السفن الأخرى في البحر الأبيض المتوسط.

مضى عليهما أسبوعان في هذه السعادة الغامرة، حتى أنها لم تكد تستطيع احتمال فكرة الرحيل.

ومع ذلك، ما أن أبحرا ببطء في البحر الأبيض المتوسط، حتى ابتدأ غاي يتحدث عن أعماله.

وشعرت هي بالاهتمام في ذلك بشكل مختلف تماماً. وفهمت تماماً ماذا كان يطلب منها أن تفعل.

عندما وصلا أخيراً إلى أثينا، وجدا السيد أوريستيس في انتظارهما.

دخلت هي الجزء المتعلق بها من العمل، وكأنها قامت بذلك عشرات المرات من قبل.

وأبدى اليونانيون حماساً فائقاً إزاء كل ما عرض عليهم من اقتراحات.

والآن، بما أن التصميمات قد قبلت نهائياً، صار لزاماً عليهما أن يتحولا إلى وجهة أخرى.

سألته: «إلى أين سنذهب؟»

سادت لحظة صمت أدركت معه أن زوجها يخفي عنها شيئاً.

فسألته: «ماذا؟ ماذا حدث؟»

أجاب: «ليس هناك ما يخيفك، يا زوجتي وإنما هي، في الواقع، رسالة إعجاب.»

فسألته: «وما هي؟»

أجاب: «هي هذه.» وتناول من على مكتبه مغلفاً بدا لأورسا ذا أهمية.

سألها: «أتريدين أن تقرأيها؟»

أجابت: «الأفضل أن تخبرني بمحتواها وأرجو أن تخفف الصدمة إذا كانت هناك.»

«ارجو أن لا يكون كذلك.»

ثم فتح الرسالة وهو يقول: «بما أنه كتب باللغة الفرنسية، وفرنسيتك بدرجة جودة فرنسيتي أن لم تكن أفضل، فمن الأفضل أن تقرأيها.»

أخذتها أورسا منه رغم أنها كانت متوجسة قليلاً منها. وما أن نظرت إليها، حتى أدركت أنها من السفارة الفرنسية وتتعلق بالبحرية.

ولم يستغرق منها قراءتها وقتاً طويلاً، وكانت رسالة إعجاب بالغ.

كان القائم بالاعمال الفرنسي يقول إنه سمع بالعمل الضخم، والابداع الذي أحدثه غاي في البحرية اليونانية.

ويسره أن يسأله إن كان يناسبه أن يزور مارسيليا ليتناولوا بالبحث في موضوع ادخال تحسينات على الاسطول الفرنسي.

قرأت أورسا الرسالة، ثم قالت: «هل من الممكن أنك أصبحت من الأهمية بحيث أنك صرت مطلباً لكل دولة؟»

ضحك غاي: «كلامك هذا رائع جداً، ولكنها، يا زوجتي، مجرد مجاملة وأظن هذا أمر يجب أن نقبل به.»

قالت: «إنهم يقولون إن لا حاجة للسرعة.»

أجاب: «نعم، لقد قرأت ذلك. ولكنني لا أرى سبباً للانتظار بينما قد يطلب الايطاليون أو الألمان أو حتى الإسكندنافيون، خدماتنا.»

فقالت: «ولم لا؟ ثم إن لدي الآن خبراً ربما يعجبك.»

نظر إليها وقال: «وما هو؟»

وقفت وسارت نحو نافذة القمرة.

كانت الشمس مشرقة في الخارج كما كانت مياه البحر داكنة الزرقة.

«ماذا تريدين أن تخبريني به؟»

مضت لحظة لم تتحرك فيها أورسا، ثم قالت: «إني فقط أظن أن... من المستحسن أن نعود... إلى بيتنا.»

قال: «هل هناك سبب خاص لذلك؟»

أجابت: «أظنك... قد تكهنت بما... هناك.»

www.rewity.com/vb

دخلت هي الجزء المتعلق بها من العمل، وكأنها قامت بذلك عشرات المرات من قبل.

وأبدى اليونانيون حماساً فائقاً إزاء كل ما عرض عليهم من اقتراحات.

والآن، بما أن التصميمات قد قبلت نهائياً، صار لزاماً عليهما أن يتحولا إلى وجهة أخرى.

سألته: «إلى أين سنذهب؟»

سادت لحظة صمت أدركت معه أن زوجها يخفي عنها شيئاً.

فسألته: «ماذا؟ ماذا حدث؟»

أجاب: «ليس هناك ما يخيفك، يا زوجتي وإنما هي، في الواقع، رسالة إعجاب.»

فسألته: «وما هي؟»

أجاب: «هي هذه.» وتناول من على مكتبه مغلفاً بدا لأورسا ذا أهمية.

سألها: «أتريدين أن تقرأيها؟»

أجابت: «الأفضل أن تخبرني بمحتواها وأرجو أن تخفف الصدمة إذا كانت هناك.»

«ارجو أن لا يكون كذلك.»

ثم فتح الرسالة وهو يقول: «بما أنه كتب باللغة الفرنسية، وفرنسيتك بدرجة جودة فرنسيتي أن لم تكن أفضل، فمن الأفضل أن تقرأيها.»

أخذتها أورسا منه رغم أنها كانت متوجسة قليلاً منها. وما أن نظرت إليها، حتى أدركت أنها من السفارة الفرنسية وتتعلق بالبحرية.

ولم يستغرق منها قراءتها وقتاً طويلاً، وكانت رسالة إعجاب بالغ.

كان القائم بالاعمال الفرنسي يقول إنه سمع بالعمل الضخم، والابداع الذي أحدثه غاي في البحرية اليونانية.

ويسره أن يسأله إن كان يناسبه أن يزور مارسيليا ليتناولوا بالبحث في موضوع ادخال تحسينات على الاسطول الفرنسي.

قرأت أورسا الرسالة، ثم قالت: «هل من الممكن أنك أصبحت من الأهمية بحيث أنك صرت مطلباً لكل دولة؟»

ضحك غاي: «كلامك هذا رائع جداً، ولكنها، يا زوجتي، مجرد مجاملة وأظن هذا أمر يجب أن نقبل به.»

قالت: «إنهم يقولون إن لا حاجة للسرعة.»

أجاب: «نعم، لقد قرأت ذلك. ولكنني لا أرى سبباً للانتظار بينما قد يطلب الايطاليون أو الألمان أو حتى الإسكندنافيون، خدماتنا.»

فقالت: «ولم لا؟ ثم إن لدي الآن خبراً ربما يعجبك.»

نظر إليها وقال: «وما هو؟»

وقفت وسارت نحو نافذة القمرة.

كانت الشمس مشرقة في الخارج كما كانت مياه البحر داكنة الزرقة.

«ماذا تريدين أن تخبريني به؟»

مضت لحظة لم تتحرك فيها أورسا، ثم قالت: «إني فقط أظن أن... من المستحسن أن نعود... إلى بيتنا.»

قال: «هل هناك سبب خاص لذلك؟»

أجابت: «أظنك... قد تكهنت بما... هناك.»

قال: «هل أنت واثقة تماماً؟»

فقالت: «إن طفلنا الأول سيكون مولده بعد حوالي ستة أشهر، وأريد أن أكون في البيت.»

فقال غاي: «وكذلك أنا.»

وعندما يتحدث الحب، لا يعود هناك حاجة للكلام.

تمـــت

www.rewity.com/vb
قراءة ممتعة للجميع
مع تحيات أسرة
قسم باربرا كارتلاند